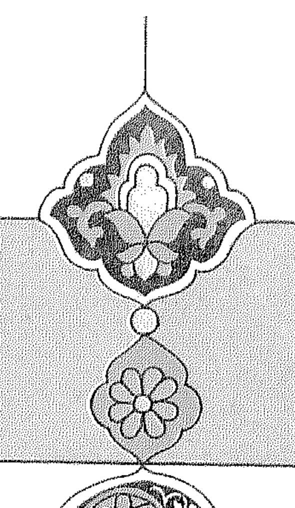
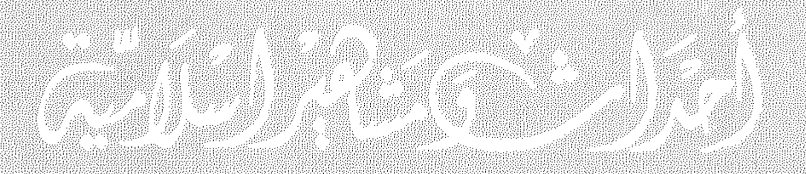
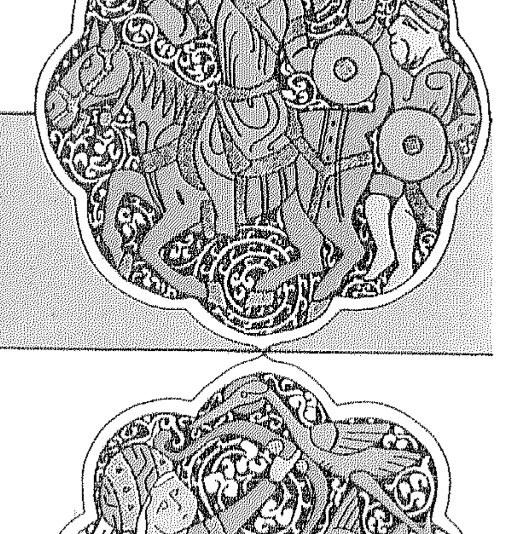
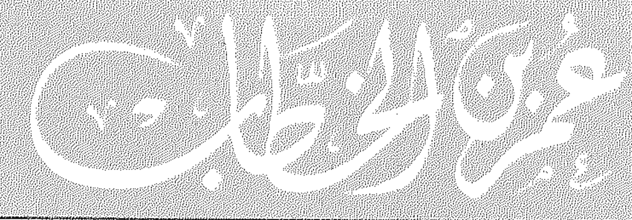








تأليف: محمد ضيا

مراجعة: د. أحمد حطيط



دار الفكر اللبناني



تأليف : محمّد ضيا

مراجعة : د. أحمد حطيط

دار الفكر اللبناني
بيروت



للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - تجاه غلوب بنك
هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٣٣٩٢
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس: DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩١

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٣٧ - ٨٣٧٤٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

مقدمة

إذا حَصَيْتَ العظماء والفقهاء والعلماء ، ألفيت عمر في الطليعة . فلو لم يكن له إلاَّ فقهه لكان به عظيماً .

وإن عَدَدْتَ الخطباء البلغاء ، كان اسم عمر من أوائل الأسماء .

وإذا ذكرت عباقرة المشرِّعين ، أو نوابغ القوَّاد العسكريِّين ، أو كبار الإداريِّين الناجحين ، وجدت عمر إماماً في كل جماعة ، وعظيماً في كل طائفة .

وإن استحريت العظماء ، الذين بنوا دولاً وتركوا في الأرض أثراً ، لم تكد تجد فيهم أهمَّ من عمر .

وهو فوق ذلك كله عظيم في أخلاقه ، عظيم في نفسه . . . !

الفصـل الأول

عمر بن الخطَّاب

نسبـه وولادتـه

هـو عمر بن الخـطاب ، بن نفيل ، بن عبـد العـزى . . . بن مضر بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

وأمه حنتمـة بنت هاشم بن المغيـرة ، بن عبد الله بن عمـر بن مخزوم ، أخت المغيرة بن هشام ، المكنَّى في الإسلام بأبي جهل .

أما ولادته : فقيل إنها كانت بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، أو قبل الفجار الأعظم (حرب الفجار) بأربـع سنين ، وكان الفجـار قبـل البعثة بستٍ وعشـرين سنة ، وكـانت سن رسـول الله ﷺ أربـع عشرة ، فمولد عمر يكون إذ ذاك قبل البعثة بثلاثين سنة .

أوصافه وشخصيته

كان عمر أبيض اللون ، تعلوه حُمرة ، حسن الخدين ، غليظ القدمين والكفَّين ، ضخم الجثة ، أصلع شديد الصلع ، أجلح قـد انحسر الشعر عند جانبي رأسه . أعسر أيسر . كـان يـمشي فيشـرف

على الناس كأنه راكب على دابَّة ، ما يكون مع قوم قط إلاَّ رُئي كأنه فوقهم .

وكان قوياً شديداً ، لا واهناً ولا ضعيفاً . إذا مشى أسرع ، ووطِىء الأرض وَطْأً شديداً .

وكان جهوري الصوت ، يصيح الصيحة فيكاد من يسمعها يصعق ، ويُغشى عليه .

إذا تكلم أَسْمَع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع .

يهوى المصارعة ، وركوب الخيل ، والفروسية . . تـذوَّق الشعر ورواه ، وكان يسمع الشعراء في عكاظ وفي غير عكاظ ، ويحفظ عنهم ويروي ما يروقه من شعرهم ، ثم إنه برز في معرفة أنساب العرب .

وكان جَيِّد البَيان ، حسنَ الكلام ، اشتهر بالفراسة وحب التفرّس والإستنباط بالنظرة العارضة .

اتصف عمر بالغلظة التي ورثها عن أبيه وقسوته عليه في صباه، ثم أعانته قوَّة بدنه على بقائها. كما اتصف باعتزازه بنفسه، مما جعله يتعصَّب لرأيه ، فلا يقبل فيه جدلاً ، وبلغ به ذلك إلى أن يناضل عن رأيه بيد البطش كما يناضل عنه بحدَّة اللِّسان . لكن ذلك لم يمنعه

من أن يقلِّب آراء غيره فيما بينه وبين نفسه ليكون أبلغ حجَّة في دفعها ، وأقوى يداً في القضاء عليها .

حارب عمر ، في جاهليته ، الخارجين على عبادة الأصنام من صابئة وغيرها . وعندما بُعث الرسول ﷺ إلى قومه يدعوهم للهدى ودين الحق ، كان عمر أشد أهل مكة خصومة للدعوة الجديدة ، ومحاربة لها ، وسعياً لردع الذين اعتنقوها ، إلَّا أن عقل عمر ، غلب ثورة غضبه ، فقذف بجاهليته جانباً وآمن بمحمدٍ ليكون : « الفاروق » الذي يتحدث الناس باسمه في إجلال وإكبار .

نشأته

نشأ عمر ، في طفولته وصباه ، نشأة أمثاله من أبناء قريش ، وامتاز عليهم بأنه كان ممن تعلَّم القراءة ، وهؤلاء كانوا قليلين جداً ؛ فلم يكن في قريش كلها ، حين بُعث النبي ﷺ ، غير سبعة عشر رجلًا يقرأون ويكتبون .

عاش خمساً وستين سنة ، أمضى منها ثلاثين سنة في الجاهلية .

وكان مُوكلًا بالسفارة لقريش ؛ فكانوا إذا وقعت حرب بينهم وبين غيرهم ، بعثوه سفيراً للمفاوضة عنهم ، وإن نافرهم منافر ، أو فاخرهم مفاخر ، رضوا به منافراً ومفاخراً .

ولم يكن أبوه الخطاب من وجوه قريش ، ولا من رؤسائها ، بل كان رجلاً فظّاً غليظاً يكلِّفه رعي إبله ؛ فكان يُتعبه إذا عمل ، ويضربه إذا قصَّر . وهكذا نشأ عمر نشأة شعبية ، ذاق فيها مرارة الحياة ، وشظف العيش ، واكتوى بنارها .

وبشكل عام ، فقد كان عمر قبل إسلامه خبيراً بالحياة في شرورها ، فلمَّا جاءت ساعة الصفر من حياته (إسلامه) ، انقلب من اليسار إلى اليمين ، دخل إلى الإسلام ، دخول الخبير بألاعيب الأشرار ، فاكتملت بذلك شخصيته وتوازنت عبقريته .

ألقابه

لُقِّب عمر بن الخطاب بألقاب عديدة ، كان من بينها : الفاروق ، وخليفة خليفة رسول الله ﷺ . أما أبرزها ، فكان لقب أمير المؤمنين الذي عُرِفَ ، واشتهر به . أما سبب هذا اللقب فيعود ، كما يُروى ، إلى أن عمر بن الخطاب كتب إلى عامله على العراقَين :

« أن ابعث إليَّ برجلين جلدين نبيلين أسألهما عن أمر الناس ! » .

فبعث إليه بِعُدي بن هاشم ، ولبيد بن ربيعة ، فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد ، ثم دخلا إلى المسجد ، فاستقبلا عمرو بن العاص .

وقالا له : استأذن لنا علي أمير المؤمنين !

فأجابهما عمرو بن العـاص : أنتما ، والله ، أصبتمـا اسمه ، وهو الأمير ، ونحن المؤمنون !

ثم انطلق حتى دخل على عمر ، وقال له : يا أمير المؤمنين !

فقال عمر : لتخرجنَّ مما قلت أو لأفعلن !!.

قال عمرو : يا أمير المؤمنين ، بعث عامل العـراقين بعُدي بن حـاتم ، ولبيد بن ربيعـة ، فأنـاخـا راحلتيهمـا بفنـاء المسجـد ، ثم استقبلاني ، وقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين !

فقلت : إنمـا ، والله ، أصبتما اسمـه ، وهـو الأميـر ، ونحن المؤمنون !

زوجاته وأولاده

تزوَّج عمر في الجاهلية ثلاث نسوة :

الأولى : قريبة بنت أمية المخزومية ، وهي أخت أم سلمة (أم المؤمنين) .

والثانية : أم كلثوم بنت عمرو بن جَرْوَل الخزاعية ، فلما كانت الحـديبية ، ونـزل قولـه تعالى : ﴿ **ولا تمسكـوا بعصم الكوافـر** ﴾ طلَّقها .

والثالثة : زينب بنت مـظعون الجمحي ، وقـد أسلمت وكانت

من المهاجرات ، وهي أم عبد الله وحفصة وعبد الرحمن .

وفي الإسلام تزوج عمر من :

أم كلثوم ، بنت علي بن أبي طالب ، فولدت لـه زيداً الأكبر ورُقية .

وتزوج من جميلة بنت عاصم بن ثابت ، فولدت له عـاصماً ، وكانت جميلة هذه تدعى عاصيـة ، فغيَّر النبي اسمهـا ، وقال : بـل أنت جميلة .

ثم تـزوج أم حكيم ، بنت الحـارث بن هشـام المخـزوميـة ، فولدت له فاطمة .

ثم تزوج عاتكـة بنت زيد بن عمـر ، وأخت سعيد بن زيـد ، وهي ابنة عم عمر ، وكانت من المهاجرات ، وعلى جانب كبيـر من الفصاحة والجمال ، فولدت له عياضاً .

ثم تزوج سبيعة بنت الحارث ، أول امرأة أسلمت بعـد صلح الحديبية . فلمـا أُنزلت آيـة الإمتحان امتحنهـا النبي ﷺ ، وردَّ على زوجهـا مهر مثلهـا ، وتزوَّجهـا عمر . أمـا لُهيَّة فـأم ولد ، وولـدهـا عبـد الـرحمن الأوسط ، وفكيهـة ، أم ولـد ، أنجبت زيــداً أصغـر ولـده ، كمـا أن عبـد الـرحمن الأصغــر ، أمـه أم ولــد ، واختلف المؤرخون في اسمها .

وقد تزوج عمر أربعاً من تلك النساء بمكة ، وخمساً بعد هجرته إلى المدينة ، على أن جَمْعَهـن لم يكتمل قط في بيته . أضف إلى ذلـك أن عمر خطب امرأتين ، فما قبلتا منه الخشونـة وشـدَّته على النساء .

الفصل الثاني

إسلام عمر

المشهور أن عمر بن الخطاب أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة ، وتزيد روايات في هذا الصدد ، وتنقص أخرى منه .

وقد لاحظ ابن كثير ، في « البداية والنهاية » ، أن عمر أسلم بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وأن عدد الذين هاجروا إليها قارب التسعين بين رجال ونساء ، وأن عمر ذهب بعد هجرتهم يريد محمداً وأصحابه المسلمين بدار الأرقم ، عند الصفا ، فكانوا أربعين ، رجالاً ونساءً .

أما الروايات في سبب إسلامه ، فتختلف وأشهرها :

أن عمر ضاق ذرعاً بما فرَّقت دعوة « محمد » من كلمة قريش ، ومما حمله وأمثاله على إيذاء من أسلموا ليفتنوهم عن دينهم ، ويردّوهم إلى دين قومهم . فلما أشار محمد على أصحابه أن يتفرَّقوا في الأرض فراراً إلى الله بدينهم ، ونصح لهم أن يذهبوا إلى أرض

الحبشة ، ورآهم عمر يترحلون ، رقَّ لهم وشعر بالوحشة لفراقهم .

وقد رُوي عن أم عبد الله بنت أبي حنثمة أنها قالت : « والله ، إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليَّ ، وهو على شركه ، وكنا نلقى منه البلاء ، أذىً لنا وشدَّة علينا ، وقف ، وقال : إنه للإنطلاق يا أم عبد الله ؟!

قلت : نعم ! والله ، لنخرجنَّ في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجاً .

فقال : صحبكم الله ! ورأيت له رِقةً لم أكن أراها . ثم انصرف، وقد أحزنه فيما رأى خروجنا» . وعاد زوجها فذكرت له هذا الحديث الذي دار بينهما وبين عمر ، وأنها طمعت في إسلامه . فقال لها : « لا يُسْلِم هذا حتى يُسْلِم حمار الخطاب ! » .

وتجري الرواية بأن عمر حزن لترحّل قومه عن وطنهم ، بعد أن عُذِّبوا وأُذوا ، وجعل يفكر في الوسيلة التي تنقذهم مما هم فيه ، فرأى أن هذا الأمر لا ينجح فيه إلاَّ علاج واحد ، وعزم على قتل محمد ، فليس إلى اجتماع كلمة قريش ، برأيه ، مع بقائه بينها سبيل .

فغدا يوماً متوشِّحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من

أصحابه ، ذُكر أنهم اجتمعوا بدار الأرقم عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء . وفيما هو في طريقه لقيهُ نُعيم بن عبد الله ، فقال له : « أين تريد ؟ » .

قال : « أريد محمداً ، هذا الصابىء الذي فرَّق أمر قريش وسفَّه أخلاقها ، وعاب دينها ، وسبَّ آلهتها ، فأقتله ! » .

قال نُعيم : « والله ، فقد عزتك نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي في الأرض وقد قتلت محمداً ! أَفَلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ » .

قال : « وأي أهل بيتي ؟ » .

قال : « ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمر ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد ، والله ، أسلما ، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما ! » .

فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه (صهره) ، وعندهما خبَّاب في مخدعٍ لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبَّاب عليهما ، فلمَّا دخل قال :

« ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ » .

قالا له : « ما سمعت شيئاً ! » .

قال : « بلى ، والله ، لقد أُخبرت أنكما تابعتا محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة لتبعده عن زوجها ، فضربها وشجَّها .

فلمَّا فعل ذلك ، قالت له أخته : « نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصْنعْ ما بدا لك ! » .

فلمَّا رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع فارْعَوى ، وقال : « ما هذا الذي جاء به محمد ؟ » . . . وقرأ سورة طه ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » .

فلمَّا سمع ذلك خبَّاب خرج إليه ، وقال له : « يا عمر ، والله ، إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيِّه ، فإني سمعته ، وهو يقول : « فالله ، الله ، يا عمر ! » .

فقال له عند ذلك عمر : « دلَّني يا خبَّاب على محمد حتى آتيه فأُسْلِم » .

فقال خبَّاب : « هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه » .

وفي رواية أخرى يقول عمر بن الخطاب داحِضاً هذه الحادثة : « فأخرجوا (أخته فاطمة وزوجها وخبَّاب) إليَّ صحيفة فيها : بسم

الله الرحمن الرحيم ، فقلت : أسماء طيِّبة ، طاهرة : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلاَّ تذكرةً لمن يخشى . تنزيلاً ممن خلق بالأرض والسموات العُلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تَجْهَر بالقول فإنه يعلم السرَّ وأخفى . الله لا إله إلاَّ هو له الأسماء الحسنى ﴾ .

فعظُمتْ في صدري ، وقلت : مِنْ هذا فرَّت قريش !

ثم إنه قرأ آيات أخرى ولما بلغ : ﴿ إني أنا الله لا إله إلاَّ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ .

قال : « ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره ! دلوني على محمد ﷺ » .

فخرج القوم الذين كانوا عند أخته ، يعني زوجها سعيد بن زيد ، وخبَّاب بن الارث ، أحد الرجلين اللذين ضمَّهما المصطفى ﷺ إلى سعيد ، وكان خبَّاب يقرئهم القرآن ، والرجل الثالث لم يُعرف اسمه ، يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه من عمر . وحمدوا الله تعالى ، ثم قالوا : « يا ابن الخطاب ، أبشر ، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الإثنين ! » .

فقال : « اللهمَّ أعز الإسلام بعمر ، وإنا نرجوا أن تكون دعوته لك ، فأبشر » .

ولمَّا عرفوا من عمر الصدق ، قال عمر : « أخبروني بمكان رسول الله ﷺ ! » .

قالوا : « في أسفل الصفا » .

قال : فجئت إلى رسول الله ﷺ في بيت في أسفل الصفا ، وهي دار الأرقم ، وكان ﷺ مختفياً فيها بمن معه من المسلمين ، ويُقال له اليوم دار الخيزران » .

ثم إن عمر قرع الباب ، وقام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنظر من خلَلَ[1] الباب ، فرآه متوشحاً بالسيف . فرجع إلى رسول الله ﷺ ، وهو فزع ، وقال له :

« يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف ! » .

فقال حمزة بن عبد المطلب : « نأذن له ، فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه ! » .

فقال رسول الله ﷺ : « **ائذَنْ له** » . .

---

(١) خلَلَ : فتحة بين شيئين .

ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال له : « **ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل بك قارعة !** » .

فقال عمر : « يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله » . فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم .

تلك هي أشهر الروايات في إسلام عمر .

وكما كان عمَر شديداً على الإسلام في جاهليته ، فظًّا في تعامله مع المسلمين ، فإنه في إسلامه ، كان قوياً ، جريئاً على الكفار والمارقين .

عن ابن مسعود أنه قال : « كان إسلام عمر عزًّا ، وهجرته نَصْراً وإمارته رحمة . والله ، ما استطعنا أن نصلِّي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر » .

ثم إن عمر ، غداة إعلان إسلامه ، خاطب الرسول ﷺ بقوله :

« يا رسول الله ، أَلَسْنا على حق إن مِتْنا وإن حيينا ؟ » .

قال ﷺ : « **بلى ، والذي نفسي بيده ، إنكم على الحق إن مُتم وإن حييتم !** » .

قال : « ففيم الإختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لتخرجنَّ ! » .

وإذن رسول الله بالإعلان ، وخرج ﷺ في صَفَّين : عمر في أحدهما ، وحمزة في الآخر . . . يثور الغبار من مشيهم حتى دخل الرسول ﷺ المسجد، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة ، لم تصبهم قط من قبل ، وسماه رسول الله يومئذ : **الفاروق** .

لقد كان هذا الإعلان ، وهذه المسيرة ، على رغم تواضعها ، أول مظاهرة صامتة في الإسلام، أريد بها إعلان الحق ونَصْرة الدِّين رغم أنف أعدائه .

وعن جُرأة عمر في إسلامه ، يقول ابن إسحق : « حدَّثني نافع عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر بن الخطاب ، قال : « أي أهل مكة ، أنقل للحديث ؟ » .

فقالوا :
« جميلُ بن مَعْمَر » .

فخرج عمر ، وخرجت وراء أبي ، وأنا غُليم أعقل كل ما رأيت حتى أتاه ، فقال : « يا جميل ، هل علمت أني أسلمت ؟! » فوالله ، ما راجعه الكلام حتى قام يجر رداءه ، وخرج عمر يتبعه ، وأنا مع أبي ، حتى إذا قام على باب مسجد الكعبة ، صرخ بأعلى صوته :

« يا معشر قريش ؛ إن عمر قد صَبَأ ! » .

فقال عمر : « كذبت ، لقد أسلمت ! » .

فثاوروه[1] وقاتلوه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، فَطَلَحَ[2] ، وعرشوا على رأسه قياماً ، وهو يقول : « اصنعوا ما بدا لكم ، فأقسم بالله لو كنا ثلاثمائة رجل تركتموها لنا ، أو تركناها لكم ! » .

ومما يُروى عن الإمام علي بن أبي طالب أنه قال :

« ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلاَّ مختفياً ، إلاَّ عمر بن الخطاب ، فإنه لمَّا همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه ، وتنكَّب قوسه ، وانتضى في يده أسهماً ، واختصر عنزته[3] ، ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فكان في البيت سبعاً متمكِّناً ، ثم أتى المقام فصلَّى ، ثم وقف على الحلق[4] واحدة واحدة يقول لهم : شاهت الوجوه[5] ! لا يرغم الله إلاَّ هذه المعاطس[6] من أراد أن يثكل أمه أو يوتم ولده ، أو يُرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي ! » .

---

(١) فثاوروه : وثبوا عليه .

(٢) طلح : أعيا ، تعب .

(٣) العنزة : عصا كالرمح ، اختصرها : أي اعتمد عليها .

(٤) الحلق : مفردها حلقة ، ويقصد القوم المجتمعين في حلقات .

(٥) شاهت الوجوه : قبحت .

(٦) المعاطس : الأنوف .

الفصـل الثالث

عمر خليفة

مـرض أبي بكر واستخلاف عمر

كانت مدة خلافة أبي بكـر سنتين وشهوراً ، ثم مـرض مرضـه الذي مات فيـه ، فدخـل عليه ، أنـاس من أصحاب رسـول الله ﷺ ومنهم عبـد الـرحمن بن عـوف ، فقـال لـه : « أصبحت بحمـد الله بارئاً ! » .

فقال أبو بكر : « تراه ؟ » .

قال : « نعم ! » .

قال : « إني على ذلك شديد الوجع . وما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد عليَّ من وجعي ، إني وَلَّيتُ أمركم خيركم في نفسي . فكلكم وَرم من ذلك أنفه يريد أن يكون الأمر له ، وقد رأيتم الدنيا قد أقبلت ولمَّا تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ، ونضـائد الديباج ، وتألموا من الإضطجاع على الصـوف الأذربي ، كما يـألم أحـدكم أن ينـام على مسـك السعـدان . والله ، لأن يقـدم أحـدكم فتضرب عنقه في غير حدث خير له من أن يخوض غمرات الدنيا » .

ويُروى أن أبا بكر لما مرض دعا إليه عبد الـرحمن بن عوف ، فقال له : « أخبرني عن عمر بن الخطاب ! » .

فقـال عبد الـرحمن : « ما تسـألني عن أمر إلاَّ وأنت أعلم بـه مني ! » .

قال أبو بكر : « وإن ! » . فقال عبد الرحمن :

« هو ، والله ، أفضل من رأيك فيه ! » .

ثم دعا عثمان بن عفان . فقال : « أخبرني عن عمر ! » فقال :

« أنت أخبرنا به » .

فقال : « على ذلك يا أبا عبد الله » .

فقال عثمان : « اللهمَّ علمي به أن سريرته خير من علانيتـه ، وأن ليس فينا مثله » . فقال أبو بكر :

فقال عثمان :

« اللهمَّ علمي به أن سريرته خيـر من علانيتـه ، وأن ليس فينا مثله » . فقال أبو بكر :

« يرحمك الله ، والله لو تركته ما عددتك ! » .

وشاور معهما سعيد بن زيد ، وأُسيـد بن حُضير وغيـرهما من

المهاجرين والأنصار ، فقال أسيد : « اللهمَّ أعلمه الخِيرة[1] بعدك ، يرضى للرضى ، ويسخط للسخَط الذي يُسر خير من الـذي يُعلن ، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه » .

وسمع بعض أصحاب رسول الله ﷺ بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبي بكر وخلوتهما به . فدخلوا على أبي بكر ، فقال له قائل منهم : « وما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد ترى غلظته ! » فقال أبو بكر :

« أجلسوني ، أبالله تخوِّفوني ، خاب من تزوَّد من أمركم بظلم أقول: اللهمَّ، استخلفت عليهم خير أهلك ، أبْلغ عني ما قلت لك مَنْ وراءَك » . ثم اضطجع ، ودعا عثمان بن عفان ، فقال اكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهد بالدنيا، خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم من بعدي . . . » .

وأخذته عشية ، فذهب به قبل أن يسمِّي أحداً . فكتب عثمان : عمر بن الخطاب .

---

(١) خِيرة خلق الله : المصطفى ﷺ .

ثم أفاق أبو بكـر ، فقال لعثمـان : « اقرأ مـا كتبتْ ! » . فقرأ عليه ذكر عمر .

فكر أبو بكر ، وقال : « أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً . والله ، إن كنت لها لأهلاً » . ثم أمره أن يكتب تتمة الكتاب فكتب :

« فـاسمعوا لـه وأطيعوا . . . . ؛ فـإن عدل فـذلك ظني بـه ، وعلمي فيه ، وإن بدل ، فلكل امرىء مـا اكتسب . والخيرَ أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

ثم أمـر بالكتـاب فختمه ، ثم أمـر عثمان ، فخـرج بالكتـاب مختوماً ، ومعه عمر بن الخـطاب ، وأسد بن شعبـة القرظي ، فقـال عثمان للناس : « أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ » .

قالوا : « نعم ! » .

فقرأه عليهم ، فأقبلوا على عمر يبايعونه .

وممـا رُوي أن عمر قـال لأبي بكر ، لمّـا دعـاه وأخبـره بـأنـه اختاره : « لا حاجة لي فيها » .

فقـال له : « لكن لهـا بـك حاجة . قـد رأيت رسـول الله ﷺ وصحبته ، ورأيت إثرته أنفسنا على نفسـه حتى إن كنا لنهـدي لأهله

فضل ما يـأتينا منـه ، ورأيتني وصحبتني . وإنَّما اتَّبعتُ أثـر من كان قبلي . والله مــا نمت فحلمت ، ولا شبّهت فتـوهَّمت ، وإنى عـلى طريقي ما زغت ! » .

ثم أخذ يوصيه ، وقال له :

« تعلم يا عمر أن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهـار ، وحقاً في النهار لا يقبله في الليل ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت مـوازينه يوم القيامة باتِّباعهم الحق . . . إن أول من أُحذرك نفسك، وأُحذرك الناس ، فإنهم قد طمحت أبصارهم ، وانتفخت أوداجهم ، وإنَّ لهم لحيرة عن ذلَّة تكون ، وإيَّاك أن تكونه ، وإنهم لن يزالوا خائفين لك فرقين منك ما خفت من الله وفرقته . لا تتمنَّ على الله عزَّ وجلّ غير الحق ، ولا تلقِ بيديك إلى التهلكة ! » .

ثم رفع يديه فقال : «اللهمَّ، أني لم أُردْ بذلك إلَّا صلاحهم ، وخفتُ عليهم الفتنة ، فعلمت فيهم ما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيـي ، فـولَّيْتُ عليهم خيرهم وأقـواهم ، وأحـرصهم على مـا فيـه رشدهـم . وقد حضرني من أمرك ما حضرني ، فـاخلفني فيهم منهم عبادك ونواصيهم بيدك ، واصلح لهم ولاتهم ، واجعله من خلفائـك الراشدين يتَّبع هدى بني الرحمة ، وهدى الصالحين بعده ، واصلح له رعيته » .

بعد تولي عمر ، قعد في المسجد مقعد الخلافة ، فأتاه رجل

وقال له : « يا أمير المؤمنين ، أدنو منك فإن لي حاجة ؟ » .

قال عمر : « لا ! » .

قال الرجل : « إذاً أذهب ، فيغنيني الله عنك ! » . فتوجه ذاهباً ، فاتبعه عمر ببصره ، ثم قام ، فأخذ بثوبه ، وقال له :

« ما حاجتك ؟ » .

قال الرجل : « بغضك الناس ، وكرهك الناس ! » .

قال عمر : « ولِمَ ويحك ؟ » .

قال الرجل : « للسانك وعصاك ! » .

فرفع عمر يديه ، فقال : « اللهمَّ حبِّبهم إليَّ ، وحبِّبني إليهم ! » .

قال الرجل : « فما وضع يديه حتى ما على الأرض أحبُّ إليَّ منه » .

كما رُوي أن أهل الشام بلغهم مرض أبي بكر ، واستبطأوا الخبر ، فقالوا : « إنَّا لنخاف أن يكون خليفة رسول الله ﷺ قد مات ، وولي بعده عمر . فإن كان عمر هو الوالي فليس لنا بصاحب ، وإنَّا نرى خلعه ! » .

قال بعضهم : « فابعثوا رجلاً ترضون عقله » . فانتخبوا لذلك

رجلاً ، فقدم على عمر . فلمّا أتاه ، قال له : « كيف الناس ؟ » .

قال : « سالمون صالحون ، وهم كارهون لولايتك ومن شرِّك مشفقون . فأرسلوني ، أنظر أحلو أنت أم مر ؟ » .

فرفع عمر يديه إلى السماء ، وقال : « اللهمَّ ، حبِّبني إلى الناس ، وحبِّبهم إلي ! » .

لماذا لجأ أبو بكر إلى طريقة الإستخلاف ؟

لم يشأ أبو بكر أن يتبع في اختيار من يحل محله الأسلوب الذي اتُّبع في اختياره . ولجأ إلى طريقة جديدة هي أن يسمِّي للملأ واحداً في حياته ، وأن يطلب منهم اختياره بعد وفاته .

وقد برَّر المؤرخون هذا الإجراء بالظروف الإستثنائية والصعبة التي كانت تحيط بالقضية . فقد كانت خلافة أبي بكر قصيرة ، واجتماع السقيفة باحتمالاته ما يزال ماثلاً في مخيلته ، ورسول الله ﷺ لم يوضع في قبره ، فكيف بالمسلمين بعد أن تحوَّل الأمر من نبوة إلى ما يشبه المُلك ، وبعد أن بدأت الأطماع الدنيوية تطل برأسها ، وبعد أن أصبح الخلاف غير محصور بين المهاجرين والأنصار ، بل دخلت فيه عناصر جديدة نتيجة لتحوّل المدينة إلى عاصمة لدولة كبيرة تأمر فتطيعها جميع أرجاء الدولة .

وأهم من هذا كله ، فإن المسلمين كانوا يواجهون معارك

حـاسمة ، في العـراق وفي الشام ، ولا بـــد أن يتـوافـر ، إذ ذاك ، الإستقرار السياسي وهدوء الجبهة الداخلية وتمـاسكها تـداركاً لشتى الإحتمالات .

خطة عمر في الحكم

أعلن عمر خطته في الحكم منذ اليوم الأول لخلافتـه ، فكان أول ما تكلّم به بعد ولايته أن قال :

« ثلاث دعوات إذا دعوت بها فأُمنوا عليها :

« اللهمَّ ، إني ضعيف فقـوِّني . اللهمَّ ، إني غليظ فليِّنـي . اللهمَّ ، إني بخيل فسخِّني .

لو علمت أن أحداً أقوى مني على هذا الأمر لكان ضرب العنق أحب إليَّ من هذه الولاية » .

ولـما ولي ، صعد المنبر ، وقال :

« ما كان الله ليراني أني أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر ! » .

ثـم نزل مِرقاة (أي درجة) ، وحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« إقرأوا القرآن تُعرفوا به ، وتزيَّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله ، لا تخفى منكم خافية ، إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله .

ألاَ وإني أنـزلت نفسي من مـال الله بمنــزلـة ولي اليتيم . إن استغنيت استضعفت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » .

وبلغ من هيبة عمر أن الرجال كانوا يتفرَّقون ويتركون مجالسهم بالأقنية هيبة ، حتى ينظروا ما يكون من أمره . فلمَّا بلغ ذلك عمر ، صاح في الناس : « الصلاة جامعة ! » .

فحضـروا ، فجلس على المنبر ، حيث كـان أبـو بكـر يضـع قدميه ، فلمَّا اجتمعوا ، وقف عمر ، وحمد الله تعـالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلَّى على النبي ﷺ ، ثم قال :

« بلغني أن الناس هابـوا شدَّتي ، وخـافوا غلظتي ، وقـالوا : قـد كـان عمر يشتدُّ علينا ، ورسول الله ﷺ بين أظهـرنا ، ثم اشتـدَّ علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟. ومن قال ذلـك فقد صـدق . فقـد كنت مـع رسـول الله ﷺ ، فكنت عبـده ، وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالى : ﴿ **بالمؤمنين رؤوفاً رحيمـاً** ﴾ فكنتُ بين يديـه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني ، أو يدعني فأقضي .

فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفَّاه الله ، وهو عني راضٍ ، والحمد لله على ذلك كثيـراً ، وأنا بـه أسعد . ثم ولي أمـر

المؤمنين أبو بكر ، فكـان من لا ينكرون دَعَتَـه وكرمـه ولينه ، فكنت خادمه وعونه . أخلط شدتي بلينه .

فاعلموا إن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها إنما تكـون على أهـل الظلم والتعـدي على المسلمين . فأمـا أهل السـلامة والـدين والقصـد ، فـأنـا ألين من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحـداً يـظلم أحداً، ويتعدَّى عليه حتى أضع هذه على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر ، وحتى يذعن بالحق .

وإنِّي بعد شدَّتي تلك أضع خدي لأهل العفاف وأهل الكفاف ولكم عليَّ ، أيها الناس ، خصال أذكرها لكم فخذوني بها لكم :

عليَّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ، ولا ممن أفاء الله عليكم إلَّا من وجهه . ولكم عليَّ إذا وضع في يدي ألَّا يخرج منهـا إلَّا في حقه . ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ، إن شاء الله ، وأسد ثغـوركم . ولكم عليَّ ألَّا ألقيكم في المهـالـك ، ولا أحجـركم في ثغوركم . وإذا غبتم في البعوث ، فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم .

فاتَّقوا الله ، عبـاد الله ، وأعينوني على أنفسكم يكفهـا عني . وأعينوني على نفسي بالأمر المعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولَّاني الله في أمركم . أقول قولي هذا ، وأستغفـر الله لي ولكم » .

وتعتبر هذه الخطبة بياناً شاملاً كالبيان الوزاري في أيامنا الحاضرة ، وخطة كاملة للحكم ، وتحليلاً لجانب من سيرته مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر ، وتعليلاً لما كان يبدو منه من الشدة .

الفصل الرابع

حركة الفتح في خلافة عمر

دوافع الفتح وهويته

كان العرب في جاهليتهم يتهيَّبون الفرس والروم ، ويخضعون لعاملين من عمالها : « اللخمي » عامل الفرس على العراق . « والغساني » عامل الروم على بلاد الشام . ويعظمونهما ويلقبونهما بألقاب الملوك ، وينظم شعراؤهم القصائد في مدحهما .

فلمَّا ولي عمر ، كسر هذا السد ، ورفع للمسلمين راية الجهاد ، الجهاد الذي أمر الله به وحضَّ عليه ، وجعله ركناً من أركان الإسلام ، وفريضة من أعظم فرائضه . فلم يكن هذا الجهاد للفتح والغنيمة ، ولا للتوسع والسيطرة ، ولا للظلم والإستعمار ، بل كان لنشر دين الله ، ولإعلاء كلمته ، وإعطاء أهل كل أرض نصيبهم من رحمة الله وقسطهم من هدايته .

وإذا كان الرأي الشائع أن العرب هم الذين هاجموا الأقاليم المجاورة لهم في العراق والشام ومُضر ، فإن الحقيقة الثابتة أن حرب

العرب لم تكن حرباً هجومية بل كانت حرباً دفاعية . .

فالرسول ﷺ أُمر بأن ينقل رسالته إلى العالم أجمع ، وقد بدأ بالأسلوب السلمي ، فأرسل كتباً إلى من جاوره من ملوك وحكام ، وعلى رأسهم كسرى ملك الفرس ، وقيصر ملك الروم ، والمقوقس حاكم مصر ؛ فمنهم من ردَّ بطريقة مهذَّبة ، ومنهم ، كملك الفرس، من أهان الرسول ﷺ أبلغ إهانة ، بل وذهب إلى حد أن أوفد رسولاً مع بعض الجند ليأتيه بالنبي العربي حياً أو ميتاً ، ولكنه مات قبل إنجاز وعيده .

وما إن بدأ الأمر يستقر للرسول في شبه الجزيرة العربية ، حتى أخذت الدول الكبرى المجاورة ، تكيد للعرب وتحاول الإيقاع بهم ، حتى توقَّع المسلمون الغزو من جانب أعدائهم على ما جاء على لسان عمر نفسه في عهد الرسول ﷺ .

وإنه لمما يسترعي الإنتباه حقاً أن عمر بن الخطاب ، الذي تمَّت في عهده أكبر المعارك حسماً في تاريخ الأمة الإسلامية ، لم يكن ممن تستهويه الحرب ، وكان لا يقدم على معركة من المعارك إلاَّ مُكرَهاً . وكان يفكر طويلاً قبل أن يأذن لقواده المتعطِّشين إلى الجهاد بالإقدام على مغامرات جديدة . وقد كان موقفه من قتال المرتدِّين نُصْحَه لأبي بكر بمسالمتهم ، حتى أخرج أبا بكرٍ عن هدوئه ودفعه إلى الإمساك بلحيته ، وإلى أن يوجه إليه تأنيبه المشهور :

« اجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام ؟! » .

ومما قاله عمر غداة الإنتصار الأول للمسلمين على الفرس :

« ولو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم » .

ثم إن عمر بن الخطاب لم يأذن لعمرو بن العاص بغزو مصر إلاَّ بعد تردّد طويل ، وبعد أن ثبت لديه أن قائد الروم قد فرَّ من الشام إلى مصر ليحشد فيها الجيوش ، ويتأهَّب للكرِّ على الشام . وبعد أن أصدر أمره إلى عمرو بن العاص في هذا الخصوص كاد يسترجعه ، على أن الخليفة نهاه عن الإيغال في المغرب بعد فتحها خوفاً منه على المسلمين .

وقد سبق لعمر أن قال : « إن رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مائة ألف دينار » .

أهم الفتوحات في عهد عمر

أ ـ فتوح بلاد الشام والجزيرة :

يُستفاد من روايات الطبري أن الجيوش الإسلامية توزَّعت ، بعد وقعة اليرموك، كل في الناحية التي عيَّنها له أبو بكر ، فاتجه عمرو بن العاص بجيشه نحو فلسطين، وشرحبيل بن حسنة نحو

الأردن ، وأبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان نحو دمشق ، وما بعدها شمالاً .

ومن أُولى المدن التي اتَّجهت إليها الجيوش الإسلامية دمشق ؛ فقد زحف عليها المسلمون بقيادة أبي عبيدة وخالد ، فنزل أبو عبيدة على باب الجابية ، ونزل خالد على الباب الشرقي ، وضربا الحصار الشديد على المدينة مدة سبعين ليلة .

أرسل والي دمشق يستنجد الإمبراطور البيزنطي هرقل ، الذي يُروى أنه كان في حمص ، فأرسل هذا الأخير مدداً ، لم تصل إلى دمشق ؛ فقد كان قسم من الجيش الإسلامي بقيادة ذي الكلاع مرابطاً في الطريق ، بين حمص ودمشق ، تحسباً لمجيء مدد من حمص إلى دمشق ، مما أدخل الفشل والوهن على أهلها .

وقد اغتنم خالد فرصة انشغال حراس المدينة ، فاصطنع حبالاً كهيئة السلالم ، وصعد السور مع جماعة من رجاله ، وانحدروا إلى الباب ، وقتلوا البوَّابين وفتحوه ، ثم دخل الجيش عنوة ، وأخذ يعمل القتل فيمن صادفه ، مما أجبر حماة الأبواب الأخرى على تسليم أنفسهم لأبي عبيدة ، فقبل منهم ذلك ، وأرسل الخبر لخالد بذلك فكفَّ عن الحرب .

وتمَّ الصلح على جميع المدينة، وعلى أساس مقاسمة أهلها

أموالهم ومساكنهم مع جزية سنوية مقدارها دينار وجريب طعام ، على كل رأس .

ومن الوقائع التي ذكر الطبري وقوعها في السنة الرابعة عشرة للهجرة وقعة « فحل » في ناحية الأردن ، وكانت بعد وقعة اليرموك، حيث سار إليها يزيد بن أبي سفيان ، وكانت معصم من معاصم الروم الهامة ، وكان فيها ثمانون ألفاً . ولما أقبل الجيش الإسلامي نحوها أجرى الروم المياه ، حتى أوحلت الأرض من حولها .

غير أن المسلمين تمكَّنوا من التغلب على هذه العوائق ، واشتبكوا مع الروم في قتال شديد ، كُتبت الهزيمة فيه على هؤلاء ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

أعلن أهل « فحل » وقوفهم على الحياد من القتال الجاري بين المسلمين والروم ، وكتبوا إلى المسلمين يقولون لهم : « أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا . أنتم أوفى وأرأف بنا ، وأكفّ عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا » ، على ما ذكره أرنولد توماس نقلاً عن مصادر قديمة .

ثم كانت وقعة بيسان حيث زحف عليها شرحبيل بن حسنة ، فحاصرها المسلمون ، وضيَّقوا على حاميتها ، واضطروها إلى الخروج ، واشتبكوا معها وانتصروا عليها . حينئذٍ طلب أهلها الصلح فصولحوا على صلح دمشق .

ولم تلبث بقية نواحي الأردن ومدنها أن جنحت إلى الصلح ، ودخلت تحت سلطان المسلمين .

واتجهت بعد ذلك كتيبة نحو طبريا بقيادة أبي الأعور ، فسارع أهلها إلى طلب الصلح ، فصولحوا على صلح دمشق أيضاً . كذلك فُتحت في الناحية الشمالية من فلسطين كل من صفورية وعكا وصور .

واتجه معاوية بن أبي سفيان ، بأمر من الخليفة ، وكان في جند أخيه ، على رأس كتيبة نحو قيسارية ، فحاصرها ، ثم كُتب النصر فيها للمسلمين .

ثم سار عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة إلى أجنادين[1]وكان فيها قائد شهير اسمه أرطبون ، وفيها حصون وخنادق وحامية كثيفة من الروم . فضرب المسلمون عليها الحصار مدة طويلة . ثم جرى بين الطرفين قتال عنيف كقتال اليرموك ، كان النصر فيه للمسلمين ، فكان فتحاً عظيماً لأنه مهَّد لفتح بيت المقدس .

ثم سار عمرو نحو بيت المقدس، في السنة الخامسة أو السادسة عشرة ، حسب الروايات التي اختلفت حول كيفية فتحها . ولعلّ أصح الروايات ، في هذا الشأن ، أن عَمْراً زحف بعد أجنادين على

---

(١) يعتقد أن مكانها اليوم في موقع وسط بين الرمل والخليل والقدس .

بيت المقدس ، وكانت تدعى « إيلياء » ، فضرب عليها الحصار . وجاء أبو عبيدة وشَهَرَ حصارها أيضاً . فضاق أهل البلد من الحصار ، ويئس الروم من مدد يأتيهم لدفع المسلمين عنها ، فطلب بَطْرِيْقها ، باسم السكان ، الأمان والصلح على أن يكون متولِّي ذلك الخليفة نفسه . وجاء عمر حسب طلبهم إلى المدينة ، وصالحهم ، وكتب لهم كتاب عهد وأمان[1] .

وبعد بيت المقدس ، دخلت اللدّ ، والرَّملة ، وسائر أنحاء فلسطين الجنوبية ، في صلح مع المسلمين في نفس الوقت الذي دخلت فيه إيلياء الصلح .

وقد ذكر البلاذري أن عمر أمر معاوية بن أبي سفيان بِتَتَبُّع ما بقي من فلسطين ، ففتح عسقلان صلحاً ، بعد كيد ، كما فتحت غزة ، ونابلس ، ويافا ورفح ، وغيرها .

وفي حين كانت حركة الفتح في فلسطين تسير بشكلها الناجح ، كانت هذه الحركة في شمال سوريا قد أخذت تسير في الإتجاه نفسه ؛ فقد زحف الجيش الإسلامي بقيادة أبي عبيدة وخالد نحو حمص ، عن طريق بعلبك ، فخرج إليهم أهلها ، وطلبوا الصلح ، فأجيبوا إليه ، وكُتب لهم كتاب أمان ، هذا نصه :

(١) راجع ما ورد في الصفحتين : ٩٠ - ٩١ .

« بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا كتاب أمان لأهل بعلبك ، رومها ، وفرسها ، وعربها ، على أنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، ودورهم ، داخل المدينة وخارجها . . .

ومَنْ أسلم منهم فله ما لنا ، وعليه ما علينا ، وتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها . وعلى مَنْ أقام منهم الجزية والخراج ، شهد الله ، وكفى به شهيداً » .

ثم زحف الجيش الإسلامي نحو حمص ، وحاصرها حصاراً شديداً إلى أن طلب أهلها الصلح ، فأُجيبوا إلى طلبهم أيضاً . وكذلك سقطت كل من حماه وقنسرين في أيدي المسلمين .

ثم اشتبكت القوات الإسلامية مع الروم الذين كان معهم كثير من نصارى العرب ، الذين كانوا يقطنون جزيرة الفرات ، فكُتب النصر للمسلمين ، وتمكن عبادة بن الصامت الأنصاري من فتح اللاذقية ، بعد حصار شديد . كما فُتحت على يديه طرطوس ، وجبلة .

ثم تتابع سقوط المدن الحصينة في أيدي المسلمين، فسقطت أنطاكية ، وتمكن يزيد بن أبي سفيان من فتح بيروت ، وصيدا ، وجبيل ، وعرقة . ولم يبقَ بدون فتح شامل من بلاد الشام إلاَّ جزيرة الفرات . فأرسل إليها سعد بن أبي وقّاص ، عيَّاض بن غنم ،

وتمكَّن بجهدٍ يسير من إرغام الرها ، وحرَّان ، ونصيبين ، ورأس العين ، والرقة ، ثم نصارى تغلب ، وغيرهم ، على طلب الصلح ، وقد علَّق الطبري على فتح الجزيرة بقوله : إنها كانت أسهل البلدان أمراً ، وأيسرها فتحاً .

ب ـ فتوح مصر والنوبة وبرقة وطرابلس :

بعد أن استتبَّ الأمر في فلسطين وسائر الديار الشامية للسيادة العربية الإسلامية ، زحف عمرو بن العاص من فلسطين نحو مصر .

ويُروى أن عَمْراً بن العاص تحدَّث مع الخليفة ، حينما قدم إلى الشام ، في شأن فتح مصر ، وأطنب له فيما هي عليه من صفات ، وما يمكن أن يكون للعرب بفتحها من سلطان ، وتمكين ، فوافقه على ذلك .

وتذكر الروايات أن الخليفة أمدَّ عمرو بن العاص بأربعة آلاف رجل بقيادة الزبيد بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ومُسلمة بن مخلّد .

وهناك روايات تذكر أن عدد المدد كانت اثني عشر ألف رجلٍ ، بقيادة الزُّبير بن العوام . وكان مع عمرو ، حينما زحف نحو أربعة آلاف رجلٍ ، فيكون مجموع ما ذكرته الروايات من القوات الإسلامية التي قدمت إلى مصر ، لفتحها ، ما مجموعه ستة عشر ألفاً على أوسع تقدير .

بدأ زحف الجيش العربي على مصر في السنة السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وقيل في السنة التاسعة عشرة .

وصل عمرو بن العاص إلى العريش دون أن يلقى أية مقاومة ، واستولى عليها ، ثم تقدم إلى الفرما ، التي كانت تسمى « بلعوز » والتي تُعدّ مفتاح مصر ، فحاصرها واستولى عليها أيضاً . ثم تقدَّم نحو بلبيس ، فوجد الروم قد تجمَّعوا فيها بقيادة أرطبون ، قائد أجنادين ، وتمكَّن من هزيمتهم ، والإستيلاء على المدينة ، ثم تقدَّم نحو هيليبوليس ، التي يسمِّيها العرب « عين شمس »[1] ، فحاصرها ، وحاصر حصن باب ليون . ثم غزا منطقة الفيُّوم ، واستولى عليها . ثم عاد إلى هيليبوليس ، وتمكَّن من احتلالها بعد حصار شديد ، واتخذها مركزاً للقيادة .

ومما يُروى أن المقوقس ، حاكم مصر ، أرسل إلى عمرو كتاباً ، مع وفد ، يطلب منه وفداً ليسمع منه ما يريد ، فأرسل إليه عمرو جواباً يقول فيه :

« ليس بيننا وبينكم إلاَّ ثلاث خصال : الدخول في الإسلام ، فتكونون أخواننا ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، أو أداء الجزية ، أو القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ! » .

---

(١) تدعى اليوم مصر الجديدة .

وسأل المقوقس الوفد عن العرب ، فقالوا :

« رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الرفعة ، وليس لأحدٍ في الدنيا رغبة ولا نهمة . وجلوسهم على الأرض ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحدٍ منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حَضَرَتْ الصلاة لم يتخلَّف منهم عنها أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم » .

أرهب هذا القول السامعين من الأقباط ، وأشار المقوقس عليهم بالصلح فقبلوا ، وفاوضهم عبادة بن الصامت . وانتهى الأمر بموافقة المقوقس وزعماء الأقباط على أداء الجزية لقاء الأمان ، فكتب لهم عمرو كتاب أمان ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا ما أعرض عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ، وملَّتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبهم ، وبرِّهم ، وبحرهم ؛ لا يدخل عليهم شيء ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية، إذا اجتمعوا على هذا الصلح . . . على ما في هذا الكتاب عهد الله ، وذمته ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمة المؤمنين . . . » .

وفيما تمَّ التفاهم على الصلح وكتابة كتاب الأمان بين المقوقس وزعماء منطقة اليون ، وعين شمس ، والقائد العربي ، أصرَّ الروم

على الإستمرار في الحصن ، وعدم الإستسلام ، فما كان من المسلمين إلَّا أن شدَّدوا الحصار عليهم .

وظلَّ الأمر كذلك ، حتى جاء المسلمين خبر موت هرقل ، فشدَّدوا هجماتهم ، واقتحموا الحصن ، واستولوا عليه ، وقتلوا عدداً كبيراً من أفراد الحامية ، واستسلم الناجون .

ثم زحف عمرو ، بعد ذلك ، نحو الإسكندرية عاصمة البلاد ، وضرب عليها الحصار الذي طال نحو سنة ونصف ، وبعد مناوشات واشتباكات متعدِّدة ، طلب الروم عقد هدنة للإنسحاب ، وقبل عمر الطلب ، فانسحبوا ، واستولى العرب على المدينة العظمى .

وكان فتح الإسكندرية في السنة العشرين للهجرة ، وفي رواية أخرى في الحادية والعشرين .

وبعد أن استتبَّ السلطان العربي على جميع أنحاء القطر المصري ، رأى عمرو أن يمده إلى الجنوب من ناحية ، وإلى الغرب من ناحية أخرى ، فسار ، في السنة الثانية والعشرين للهجرة ، على رأس جيش نحو المغرب ، فاحتلَّ زُويلة ، وبرقة ، ثم قاتل الروم في طرابلس وهزمهم واستولى على المدينة . ثم كتب إلى الخليفة يقول :

« إنَّا قد بلغنا طرابلس ، وبينها وبين إفريقيا تسعة أيام ، فإن

رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل !» . فلم يأذن له عمر بذلك . والراجح أن الخليفة تحسَّب من عواقب الإنتشار والتغلغل قبل الإستعداد والتوطّد .

وقد كان فتح طرابلس تمهيداً للتدفق العربي الإسلامي نحو بقية أنحاء شمالي إفريقيا ، في خلافة عثمان ، وما بعده .

ثم سيَّر عمرو، بقيادة عقبة بن نافع الفهري ، خيلاً إلى أرض النوبة ، فلقي المسلمون من أهلها قتالاً شديداً ، ورشقوهم بالنبل ، وكانت إصاباتهم بعيونهم ، من ذلك ، كثيرة ، حتى سُمِّيت الوقعة بـ « **وقعة الحدق** » .

ج ـ فتوح العراق وبلاد فارس :

استطاع خالد بن الوليد تحرير العراق من النفوذ الفارسي وبسط النفوذ العربي الإسلامي عليه ، ودخل معظم سكانه في صلح مع المسلمين . وقبل أن يغادر خالد إلى الشام ، بأمر من أبي بكر ، لنجدة المسلمين هناك ، استخلف على العراق المثنى بن حارثة الشيباني .

اغتنم الفرس فرصة سفر خالد ، وضعف الحامية الإسلامية المرابطة في العراق ، وحاولوا استرجاع ما كان لهم من سلطان ، وعيَّنوا قائداً عليهم أحد زعمائهم ، ويدعى رستم .

وبعد وفاة أبي بكر وتولِّي عمر ، أرسل هذا الأخير المدد إلى المثنى ، بقيادة أبي عبيدة بن مسعود الثقفي ، الذي انتصر على الفرس في عدد من المعارك . إلاَّ أنه مُني بهزيمة مُفجعة ، في وقعة الجسر ، بعد أن دفع الفرس نحو المسلمين ، الذين كادوا أن يغلبوهم ، فيلاً من أفيالهم عبر الجسر الضيِّق الذي يفصل بينهما ، فتصدَّى له أبو عبيدة ، وضربه بالسيف ، فهاج الفيل ، وضرب أبا عبيدة وسحقه، فاضطرب المسلمون وأخذتهم سيوف الفرس من خلفهم ، فتهافتوا في الفرات ، وقُتل وغرق منهم نحو أربعة آلاف .

ثم اشتبك المسلمون مع الفرس في « البويب » ، وانتصروا عليهم ، إلاَّ أن الفرس جمعوا أمرهم ، وملَّكوا عليهم يزدجرد كسرى ، فأخذ يحشد الحشود ، ويوجِّهها بالإنسحاب إلى ماء ذي قار .

ثم عزم الخليفة على أن يسير بنفسه إلى الجبهة ، واستشار أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه ، بغير ذلك . ونصحوه بتولية سعد بن أبي وقَّاص لهذه المهمة .

خرج سعد على رأس أربعة آلاف مقاتل ، ثم أمدَّه الخليفة بالجند حتى بلغ عدد من تجمَّع تحت قيادته ثلاثين ألف رجل .

أرسل سعد إلى يزدجرد وفداً برئاسة النعمان بن مقرن ، فدعاه

وقومه إلى الإسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتـال ، وكان ردُّ يـزدجرد على النعمان قاسياً .

كما أرسل سعد وفداً برئاسة المغيرة بن شعبة إلى رستم ، قائد جيش الفـرس ، للغـرض ذاتـه ، ولـم يكن ردّ رستم بـأهـون من رد ملكه .

وبعد فشل المفاوضات احتكم الفريقان إلى القتال ، فأظهرت القوات الإسلامية تفوّقاً ملحوظاً ، مما أجبر الفرس على الإنسحـاب نحو القادسية ، حيث خيَّم رستم مع جيوشه . وكانت القادسية بمثابة باب العراق الشمالي أو العجمي .

ثم بـدأ المسلمـون بـالإشتبـاك مـع الفـرس في الـقـادسيـة ، واستمرت المعركة ثلاثة أيام انتهت بهزيمة منكـرة للفرس ، بعـد أن قُتل منهم مقتلة عظيمة ، وكان من بين القتلى القـائد رستم نفسـه . واستولى العرب على ما لا يكاد يحصى من مال ، وسلاح ، ومؤن ، ودواب ، كما استولوا على راية الفرس المقدَّسة . وكانت هذه الواقعة في السنة الخامسة عشرة للهجرة .

بعد وقعة القادسية، غدت الطريق مفتوحة إلى عـاصمة الفـرس (المـدائن) ، التي تقدَّم المسلمـون نحوهـا ، ووقفت في طريقهم قلعة بهريسر التي كانت بمثابة حصن أمامي للعاصمة ، على الجانب الغربي من دجلة ، فحاصروها شهراً ، ثم استولوا عليها .

ثم استطاع المسلمون بقيادة أحد أبطالهم ، ويدعى عاصم بن عمرة ، ومعه ستمائة مقاتل ، من عبور نهر دجلة ، على الخيل ، وأقاموا رأس جسر على الضفة الثانية .

ثم تقدَّم سعد وجنوده، فاقتحموا النهر، وكان عبورهم مفاجأة لأهل المدائن ، فذعروا أشد ذعر. وهرب الملك، ودخل المسلمون المدينة بدون مقاومة تُذكر ، واحتووا على كميات كبيرة من الذخائر ، والكنوز ، والأموال ، والمتاع .

إلَّا أن الفرس أعادوا تجمُّعهم في مدينة **جلولاء** ، التي حصَّنوها ، وخندقوا حولها . وتقدَّم سعد نحوها ، واشتبك الجيشان اشتباكاً شاملاً كانت نتيجته هزيمة قاسية للفرس ، ذكرت الروايات أن عدد قتلاهم بلغ مائة ألف قتيل ، واستولى المسلمون على غنائم عظيمة .

أرسل سعد إلى الخليفة عمر خُمس غنائم الحرب من وقائع القادسية، والمدائن ، وجلولاء ، وأرسل إليه ما عثر عليه من تاج كسرى ، وسيفه ، وثيابه الثمينة ، فلم يتمالك الخليفة من البكاء شكراً لله على عظيم ما أنعم به على المسلمين ، وخطب بالناس قائلاً لهم : « لقد جاءنا مال كثير؛ فإن أردتم عَدَدْنا لكم عدًّا ، وإن أردتم كِلْنا لكم كيلاً » . وقد تمكنت القوات الإسلامية ، بعد جلولاء ، من تصفية المنطقة وإخضاعها للسيادة العربية .

وبعد استراحة قصيرة ، استأنف المسلمون نشاطهم وحركتهم داخـل بلاد فـارس . وعُيِّن النعمان بن مقـرن المزني قـائـداً لحملة لمـواجهة فلول الفـرس في عقـر دارهم، فـاشتبـك معهم واستشهـد، فاستلم القيادة حـذيفة بن اليمـان الذي استـطاع قيادة المسلمين إلى النصر الكبير .

واستولى المسلمون على همذان ، ومرو ، وقـد سمي فتحهم فيها بفتح الفتوح لكثرة خسائر العدو . ثم تقدمـوا في بلاد فـارس ، واستولوا عليها .

وبعد إتمام فتح العراق وفارس ، اتجهت الفتوح الإسلامية إلى بلاد الترك .

الفصــل الخامس

عمر وتنظيم الدولة

بالرغم من أن النشاط الحربي قد استغرق معـظم فترة خـلافة عمر ، فإنه لم يضنَّ بالجهود اللازمة لتنظيم الدولة من الناحية الإدارية والعناية بمـرافقها العمـرانية . وكـان الخليفة عمـر المؤسس لمعظم النظم الإدارية والمشروعات العمرانية التي عرفتها الـدولة الإسـلامية فيمـا بعد ، ويكفيـه أنه أول من دوَّن الـدواوين ، وقسَّم الدولـة إلى ولايات وأنشأ المدن خارج شبه الجزيرة العربية ، وأقام المشروعات العمرانية المختلفة .

إنشـاء الدواوين

الديوان كلمة فارسية معناها « السجل » ، أو « الدفتر » ، وقـد أُطلق اسم الـديوان في بـاب المجاز على المكـان الـذي يُحفظ بـه الديوان .

والمعلوم أن أول من وضـع الديـوان في الإسلام هـو عمر بن الخطاب ، وذلك بعد أن غنم المسلمون كنوز فارس والروم .

أما قَبْل عمر ، فلم تعرف الدولة الإسلامية شيئاً من هذه الدواوين ؛ فلم يكن للرسول بيت مال ، لأنه كان يوزِّع الفيء والصدقات بمجرد قبضها . وجرى الخليفة الأول على نهج الرسول ، فرفض إتخاذ بيت مال ، فلما كثر الفيء ، أيام عمر ، بصورة غير مألوفة ، أشار عليه أصحابه باتخاذ الديوان .

ويختلف الرواة في تاريخ إنشاء الديوان ، فالطبري يذهب إلى أنه أنشىء في السنة الخامسة عشرة للهجرة ، ويقول ابن سعد : إنه في المحرم سنة عشرين ، ولعلّ التاريخ الأخير هو الأقرب إلى الواقع ، لأنه يوافق الفتوحات الكبرى التي أدَّت إلى تدفق الأموال إلى المدينة بصورة غير مألوفة .

ويُروى أن عمر إنما دوَّن الديوان ، وفرض العطاء ، ليفرغ المسلمون للجهاد في سبيل الله ، ولكي يصبح ميدان الدعوة إلى دين الله حراً طليقاً ، لا يتحكَّم فيه الروم والفرس أو غيرهما .

ولهذا السبب حُرِّم ، في عهده ، قسمة الأرض في البلاد المفتوحة على الجند ، حتى لا يُشْغَلوا بالزراعة عن الجهاد ، وحتى لا تجذبهم الأرض إليها ، فتنسيهم الرسالة الكبرى .

وكان في المدينة سجل للمسلمين الذين يستحقون العطاء من بيت المال ، وكان عمر يحرص على أن يصل إلى كل ذي حق حقه .

وقد رُوي أنه كان يحمل « سجل » كل قبيلة من القبائل ، ويذهب إليها بنفسه في موطنها .

ولم يكن من الميسور أن تكون سجلات المسلمين كلها في المدينة ، لذلك أنشئت سجلات على غرار سجل المدينة في العواصم الأخرى ؛ فكان هناك ديوان عند والي اليمن ، وآخر في البصرة يحفظه أمير كل إقليم . وأصبح كل والٍ مسؤولاً عن إيصال العطاء إلى أصحابه في ولايته ، كما كان عمر يُوصل العطاء لأصحابه في المدينة وما حولها .

وقد ذُكر أن الخليفة عمر ، سأل أصحاب رسول الله ﷺ : « بمن أبدأ ؟ » .

قالوا : « بنفسك ! » .

فقال : « لا ، ولكني أضع نفسي حيث وضعها الله ، وأبدأ بآل الرسول ﷺ » .

ثم أمر بترتيب ديوان المدينة ، مبتدئاً بأزواج النبي ﷺ ، ثم أقاربه ، ثم الأفضل فالأفضل في السبق إلى الإسلام ، والهجرة ، والجهاد .

ومما رُوي في هذا المجال ، أن عبد الله بن عمر ، احتجَّ على إنقاص عطائه عن عطاء أسامة بن زيد ، حيث فرض له أقل مما فرض

لأسامة ، وقال : « شهدت ما لم يشهده من الوقائع » .

فقال له أبوه : « إني زدته عنك لأنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك ، ولأن أباه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك ! » .

ولم يكن ديوان العطاء هو الديوان الوحيد الذي أنشأه عمر ، بل أُضيف إليه « ديوان الإنشاء » لحفظ الوثائق الصحية .

ويلاحظ أنه لم يكن ثمة ديوان للإنشاء قبل أن يُنْشئه عمر ؛ فقد كان الرسول ﷺ يكتب إلى عمَّاله ، وإلى رؤساء الدول الأخرى في بعض المناسبات ، وكانت هذه الكتب والردود عليها تُحفظ عنده في المدينة ، وصنع الصديق صنيعه .

أما في عهد عمر ، فقد كثُرتْ الكتب لدرجةٍ غير مألوفة ، فأنشيء الديوان الخاص بها في المدينة ، وفي غيرها من العواصم . وكانت دواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق تستعمل الفارسية ، ودواوين مصر تعتمد اللغة القبطية . ولم يكن العاملون في هذه الدواوين من العرب ، بل كانوا من أهل البلاد المفتوحة ، من الروم ، أو الفرس ، أو القبط .

أما ديوان الجند فقد هدف ترتيبه إلى إقامة جيش متفرغ للجهاد والدفاع كلما دعا الداعي إليها .

وقد أُثر عن عمر أنه كان يأمر بعدم اشتغال المجاهدين

بالزراعة ، والتكسُّب ، حتى يكونوا على استعداد دائم لتلبية واجب الجهاد . مع الملاحظة أن كثيراً من الفئات التي دخلت في الديوان لم تكن محاربة ، أو بعبارة أخرى لم تكن في حالة القادر على ممارسة الحرب ، مثل نساء النبي ﷺ ، وكبار أصحاب رسول الله ﷺ من السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار ، إضافة إلى العديد ممن اشتركوا في وقائع الفتح الكبرى ، وأقاموا في الأمصار ، فكُتبت أسماؤهم في الدواوين .

ولعلَّ ذلك كله يدلّ على أن الترتيب المُعْتَمَد استهدف أمراً عظيماً آخر ، هو مساعدة وترفيه أصحاب السابقة في الإسلام والجهاد ، ممن أقعدتهم ظروفهم وأعمارهم عن متابعة الجهاد .

ويعتبر بعض الباحثين أن عمر ، يصح أن يسمى مؤسساً لديوان **« الوقف الخيري »** ، فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجِيَاع الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضاً بخيبر ، فاستشار الرسول ﷺ فيها ، فاستحسن له أن يحبس أصلها ، ويتصرّف بريعها ، فجعلها عمر صدقة ، لا تُباع ولا تُوهب ، ولا تُوزن ، يُنفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم . ولا جُناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ، ويُطعِم صديقاً فقيراً منها .

ولم يكتفِ عمر بإنشاء هذه الدواوين فحسب ، بل أنشأ البريد ، وبيت المال ، ومَرَابط الثغور ، ومَصْنع السِّكة لضرب

النقود ، ودار الحبس للعقاب .

هذه الدواوين التي كانت نواة الوزارات الإسلامية، والتي أرسى عمر قواعدها ، كانت البذرة التي تفرَّعت منها الدواوين الأخرى ، وتنوَّعت في العهدين الأموي والعباسي .

التقسيمات الإدارية

كما اضطر الخليفة عمر إلى إنشاء الدواوين في العاصمة والأقاليم ، اضطرته مقتضيات اتساع رقعة الدولة الإسلامية وحُسن الإدارة إلى تقسيم البلاد إلى « ولايات » ، أو « إمارات » ، على رأس كل منها « والٍ » أو « أمير » ، يكون ممثلاً للخليفة فيها ، يؤدِّي وظائفه المدنية والدينية .

كما أن عمر سمح بإنشاء مدنٍ عربية تكون قواعد للحكام ، وتحافظ على عروبة الجند ، وتحول دون اندماجهم في السكان الأصليين ، حتى لا يفقدوا خصائصهم الذاتية ، من تقشف ، وزهد ، واستعداد للبذْل ، والفداء في سبيل الله ، وهي الصفات التي مكَّنتهم من اكتساح جنود كسرى وقيصر .

وقد جاءت التقسيمات الإدارية زمن الخليفة عمر كما يلي :

ولاية الأهواز والبحرين ، وولاية سجستان ، ومكران وكرامان ، وولاية طبرستان ، وولاية خراسان . وجعل بلاد فارس

ثلاث ولايات : بلاد العراق ، وقسَّمها إلى قسمين ، أحدهما حاضرته الكوفة ، والآخر حاضرته البصرة ، وقسَّم بلاد الشام إلى قسمين : أحدهما قاعدته حمص ، والثاني دمشق . وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته ، وقسَّم إفريقيا إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر وصحراء ليبيا .

وكان على كل إقليم من هذه الأقاليم عامل ، (أو وَالٍ أو أميرٍ) يقوم بإمامة الناس في الصلاة ، ويفصل في الخصومات ، ويقود الجنود في الحرب ، ويجمع المال . . . ثم أقيم إلى جانب الوالي عاملٌ للخراج ، مما أدى إلى قيام المنازعات بين الولاة وعمال الخراج ، وجرى التقليد على أن يكون الولاة من العرب .

ولمَّا كان العامل في الولاية ممثلاً للخليفة ، لذلك كان عمر دقيقاً في تحرِّيه لمن سوف يعيِّنه لهذا المنصب . فلم يُعَيِّن إلاَّ من وثق به : في دينه ، وعقله ، وسلوكه .

وكان عمر ، إذا ما بدرت من أحد عماله أو ولاته بادرة تناقض شيئاً من هذه الاعتبارات ، أو رُفعت إليه شكاوى أثارت الشكوك في نفسه ، يسارع إلى عزله ، مهما كانت شخصيته وبلاؤه وسابقته ، ولو لم يصل ما بلغه إلى الإتهام الصريح بخيانة أو تقصير ، حرصاً منه على أن يكون عمَّاله فوق كل الشُّبهات عنده وعند الناس .

وكان من عادته أن يأخذ عمَّاله بموافاته الحج كل سنة للسياسة

والمشاورة والإستطلاع ، ثم لحجزهم عن الرعية ، وترك المجال حراً لشاكٍ يرفع شكواه فيهم .

ولم يكتفِ عمر بذلك ، بل كان يسأل بنفسه الوفود عن عماله ، ويستقصي أخبارهم ، ومما كان يسأل الناس :

« هل يعود أميركم مرضاكم ؟ وهل يعود العبيد ؟ وكيف صنيعه بالضعيف ؟ وهل يجلس على بابه ؟ » .

وعيَّن عمر مفتشين يطوفون البلاد ، ويستطلعون حالة الرعية والعمّال ، ويتحرَّون حالة عمَّاله المادية فيحاسبونهم ، ويصادرون ما يشتبهون منه من أموال في حوزتهم ، ويقاسمونهم إياه إذا لم يكن حراماً ، كما كان الخليفة يباشر هذا الأمر بنفسه أحياناً .

وقد كتب عمر بهذا الخصوص إلى عامله على مصر عمرو بن العاص يقول : « إنه قد فشت لك من متاع ، ورقيق ، وآنية ، وحيوان ، لم يكن حين وُلِّيْتَ مصر ! » .

فكتب إليه عمرو : « إن أرضنا أرض مزدرعٍ ومتجر ، فنحن نُصيب فضلاً عما نحتاج إليه لمنفعتنا » .

فكتب إليه عمر : « إني قد خَبِرْتُ من عمّال السوء ما كفى ، وكتابك إليَّ كتاب مَنْ قد أقلقه الأخذ بالحق ، ولقد سوءتُ بك ظنّاً ، وقد وجَّهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فاطْلِعْهُ

طلعة ، واخرج إليه ما يطالبك به ، واعْفِه من الغِلْظة عليك ، فإنه برح الخفاء ! » .

ثم حضر محمد إلى مصر وقاسم عمرو ماله .

إنشـاء المدن والعواصم

تحوَّلت شبه الجزيرة العربية ، أيام عمر ، إلى معسكر كبير للأمة العربية والإسلامية ، لأداء الرسالة الإلهية التي اختارها الله لها ، وساعد على ذلك حياة الخشونة التي اعتادها العرب ، منذ القِدم ، بالنظر إلى جَدْب طبيعة شبه الجزيرة العربية وقسوتها .

ولمَّا فتح الله على المسلمين العراق ، والشام ، ومصر . وجد عمر نفسه أمام مشكلة مُلِحَّة ، وهي كيف يحافظ على خصائص الجنوب العربي أطول مدة ممكنة إزاء الإغراءات الجديدة ؟ وانتهى به تفكيره إلى أن يرفض رفضاً مطلقاً اندماج العرب في الشعوب المفتوحة . ومن هنا كان رفضه لمبدأ تقسيم الأرض وتوزيعها على الفاتحين ، وفرض عطاءً لكل مسلمٍ من بيت المال ، حتى يفرغهم تماماً للرسالة الكبرى التي حملوا بها .

إلَّا أن عمر أدرك ، من ناحية أخرى ، حاجة الأمة الإسلامية إلى نوع من المعسكرات الدائمة في أطراف الدولة النائية ، تكون الحياة فيها ميسَّرة للجندي العربي ، دون أن تفقده مقدِّمات

الجندية . وانتهى به الأمر إلى السماح بإنشاء مُدن عربية مُتميِّزة ، ظلت مزدهرة على مر القرون ، وأشهرها على الإطلاق : البصرة ، والكوفة في العراق ، والفسطاط في مصر .

قصة إنشاء البصرة :

أول ما نزل بموضع البصرة هو القائد عتبة بن غزوان ، وقد كتب إلى الخليفة عمر يُعلمه بنزوله إياها ، ويخبره بأنه لا بدّ للمسلمين من منزل يشْتون به ، إذا شتوا ، ويستترون فيه إذا انصرفوا من غزوهم . فردَّ عليه الخليفة أن « اجْمَعْ أصحابك في موضع واحد ، وليكن قريباً من الماء والمرعى ! » وطلب إليه ـ كما هي عادة عمر ـ أن يكتب إليه بصفة الموقع . فكتب القائد إلى عمر :

« أني وجدت أرضاً كثيرة القصب ، في طرف البر ، إلى الريف ، ودونها مناقع ماء » .

وافق الخليفة على اختيار الموقع ، فنزل بها المسلمون ، وبنوا مساكنهم بالقصب ، وكذلك المسجد ، وذلك سنة أربع عشرة للهجرة ؛ فكانوا إذا غزوا نزعوا القصب ، وحزموه ، ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو ، فإذا رجعوا أعادوا بناءه .

فلم تزل الحال كذلك ، حتى أمر عمر أبا موسى الأشعري بالخروج إلى المكان ، وأن يصرف الخطط لمن هناك من العرب ،

ويجعـل لكل قبيلة محلَّة ، وأن يـأمر النـاس بالبنـاء ، وأن يبني لهم مسجداً جامعاً .

قصة إنشاء الكوفة :

لمّا فتح العرب جلولاء وتكريت ، وقـدمت وفودهـا على عمر بالمدينة ، رآهم متغيِّرين قد اصفرَّت وجوههم ، وتحلتْ أجسادهم ، فقال لهم عمر : « والله ، ما هيئتكم بالهيئة التي خرجتم بهـا ، ولقد قدمت وفود القادسية ، فما كانوا مثلكم ، فما الذي غيَّركم ؟ » .

قالوا : « وخومة البلاد ورطوبتها » .

فكتب الخليفـة إلى سعد بن أبي وقَّـاص يقـول : « أنبئني مـا الذي غيَّر ألوان العرب ولحومهم ؟ » .

فكتب إليـه القائـد : « إن العرب خـدَّدهـم، وغيَّر ألـوانهـم ، وخومة المدائن ودجلة » .

فكتب إليه الخليفة :

« إن العرب لا يوافقهـا إلاَّ ما وافق إبلهـا من البلدان ، فابعث سلمان رائداً وحذيفة (وكانا رائـدي الجيش) ، فليرتـادا منزلاً بـرياً بحرياً ، ليس بيني وبينكم فيه بحر ، ولا جسر ! » .

فبعث سعـد حذيفـة وسلمان . فخـرج سلمان حتى الأنبـار ،

فسار في غربي الفرات ، لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة[1] ، وخرج حذيفة ، فسار في شرقي النهر ، لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة ، فأعجبتهما البقعة ، فنزلا وصلّيا ، وكتبا إلى سعد بالخبر ، فجمع قواده ، وارتحل بالناس من المدائن عاصمة الفرس القديمة ، حتى عَسْكَر في الكوفة سنة ١٧ هـ ، وكتب إلى عمر :

« إني قد نزلتُ بكوفة منزلاً ، بين الحيرة والفرات ، برياً بحرياً ينبت الحلى والنصى (نوع من النبات) . وخيَّرت المسلمين بالمدائن ، فمن أعجبه المقام فيها تركته فيها كالمسلحة، فبقي فيها أقوام أكثرهم بنو عبس » .

لم يقتنع عمر بتحديد مواصفات المكان ، فطلب من سعد أن يأمر كبير مهندسي الجيش أن يخطِّط لهم المدينة ، ووضع له القواعد التي يتعيَّن عليه اتِّباعها ، بأن يجعل عرض شوارعها الرئيسية أربعين ذراعاً ، وما يليها ثلاثين ، والصغيرة منها عشرين . وأن يجعل فيها أزقة ؛ الزقاق سبعة أذرع « ليس دون ذلك شيء ! » .

وقد بنيت المدينة أولاً بالقصب على النحو الذي بنيت عليه البصرة ، فلمَّا شبَّ فيها حريق ، أذن الخليفة باستعمال اللُّبن في البناء .

---

(١) كل حصباء ورمل مختلطين هو في اللغة « كوفة » .

ج ـ قصة إنشاء الفسطاط :

لما رأى عمرو بن العاص أن يتّخذ عاصمة للحكم في مصر ، استأذن الخليفة في أن تكون هي الإسكندرية ، العاصمة القديمة .

فسأله عمر : « هل يحول بيني وبينكم ماء ؟ » .

أجاب عمرو : « نعم ، إذا جرى النيل » .

فكتب إليه الخليفة يقول : « لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم ، في شتاء ولا صيف » .

فاختار عمرو الفسطاط ، عاصمة للحكم ، لأنها تحقّق رغبة أمير المؤمنين . ثم بنى عمرو مسجداً بالفسطاط واتخذ فيه منبراً يخطب في الناس من فوقه . فلمّا بلغ ذلك الخليفة عمر ، كتب إليه يقول: «بلغني أنك اتّخذت منبراً تَرَقّى به على رقاب المسلمين، أما حسبك أن تقوم قائماً ، والمسلمون تحت عقبيك ؟! » . وطلب إليه أن يسارع إلى كسر المنبر ، فنفذ عمرو إرادة الخليفة .

ثم أن عَمْراً بنى لعمر بن الخطاب ، منزلاً بجوار المسجد الجامع ، فأجابه عمر : « أنّى لرجلٍ مثلي من الحجاز أن تكون له دار في مصر ؟ » ، وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين .

القيام بالمشروعات العامة

كانت الأموال الكثيرة التي تدفَّقت على الجزيرة العربية تسمح لعمر ـ لو شاء ـ أن ينفِّذ من المشروعات العمرانية ما من شأنه أن يحوّل الجزيرة العربية ، أو بعض أجزاءها ، إلى جنة فيحاء .

ولا شك أن عمر قد سمع عن سد مأرب الذي جاء ذكره في القرآن الكريم ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ؛ فمشروعاته في الجزيرة كانت كلها ذات طابع ديني ، وأشهرها توسيع المسجد النبوي وفرشه بالحصى ، وتوسيع الحرم المكي ، ونقل مقام إبراهيم (ع) من مكانه ، وكسوة الكعبة بالقباطي ، وهي ثياب بيض رقاق تُصنع في مصر ، وإضاءة المساجد في الليل وتوفير الماء للمسافرين بين مكة والمدينة .

ولعلّ عمر كان يخشى الإقدام على تنفيذ المشاريع على نطاق واسع مخافة أن يرتبط العربي بالأرض ، فلا يخفّ عندها إلى نداء الجهاد في سبيل الله ، في حين أن كثرة خيرات البلاد المفتوحة ، وجدب الأراضي بالحجاز ، كانا من بين الدوافع التي تغري العربي بالإنخراط في سلك الجندية والمسارعة إلى تلبية داعي الجهاد ، وهذا ما أوضحه خالد بن الوليد في الخطبة التي ألقاها في قواته حينما غزا العراق لأول مرة ، وهاله ما به من ترف ونعيم .

ولكن هـذه الإعتبارات تفقـد أثرهـا إذا ما تعلق الأمـر بالبـلاد المفتوحة. فالجزية، وخراج الأرض التي رفض عمـر أن يقسِّمها بين الفاتحين، هما المصدر الـدائم لبيت المال . ومن ثم فإنهما عصب مشـروعات عمـر التوسعيـة ، ولقد أشـار إلى هـذا المعنى صـراحـة عمـرو بن العاص ، حين تسـاءل الخليفـة عن السبب الـذي يجعـل خراج مصـر تـحت الحكم الإسلامي ، مع ما يتَّسم به من عدل، أقل من خراجها تحت حكم الفراعنة الطغاة المتجبِّرين ، فردَّ عمرو على تساؤل الخليفة بقوله : « إن الفراعنة ، مع عتوّهم وتجبّرهم ، كانـوا أكثر اهتماماً بتعمير الأرض والقيام بالمشروعات العمرانية » .

ولهذا نجد عمر يدفع عماله إلى القيام بالمشروعات العامة التي تعود على أهل البلاد خـاصة ، وعلى الأمة الإسلامية عامة ، بالخير والبركة ، ولعل أبرز هذه المشروعات هي :

استصلاح الأراضي في العراق لزيادة غلتها :

فبعد أن استتب الأمر للمسلمين في العراق ، أمر عمر رجالـه بأن يمسحوا أراضيه ، وأن ينظِّموا مجاريه ليصل الماء إلى كل بقعـة صالحة للزراعة ، وأن يصلحوا قناطره وجسوره ، وأن يعمروا كل ما ضرَّ به الفسـاد ، وأضرَّبتـه الحرب في أرجـائه . وكـان المهندسـون

الفـرس الذين أقـاموا بـالعراق خيـر عون للمسلمين في تنفيـذ هـذه المشروعات الكبيرة .

وقد طُبِّقت الأعمال نفسها في الشام أيضاً .

كما أن عمرو بن العاص أنفق من خراج مصـر ، ومن الجزيـة المضروبة على أهلها ، ما يحتاجه تخليص البـلاد من حفر التـرع ، وإقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وإصلاح الجزر .

ـ ثم حـدث أن جاء وفـد من أهل البصـرة يشكو إلى الخليفـة الصعاب التي سيلاقيها ساكنو البلدة من قلة المياه ، وجدب الأرض وملوحتها ، لقربها من البحر، فزاد عمر في عطائهم، وأمر عامله على الكوفة ، أبا موسى الأشعري ، فأجرى لهم نهراً من دجلة على ثلاث فراسخ إلى شمالها .

ـ على أن أكبر المشروعات ، التي قام بها عمر على الإطلاق ، كان حـفر خليج أمير المؤمنين ، لربط النيل بالبحر الأحمـر ، (بحر القلزم) . وقد اختلفت الروايات في شأن صاحب الفكرة الأولى في حفره . وتذهب بعضها إلى أن عمر بن الخطاب هو الذي اقترح على عمرو بن العاص حفر الخليج ، وأنه قال له في هذا الخصوص :

« قـد أُلقي في روعي لما أحببت من الـرفق بـأهـل الحـرمَيْن والتـوسيع عليهم ، حين فتـح الله عليهم مصر . وجعلهـا قوة لهم ،

ولجميع المسلمين ، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فإن حمله على الظهر يبعد ، ولا نبلغ مثل ما نريد » .

وتقول الروايات أيضاً أن المصريين شقَّ عليهم تنفيذ المشروع ، وتخوّفوا من نتائج ذلك ، فراجعوا عمر ، ولكنه أصرَّ على تنفيذ المشروع .

والراجح أن بداية الفكرة نبعت في مصر ، وقد تكون نتيجة لمشورة الراهب « بنيامين » ، لأن مشروع الخليج قديم ، لم يبتكره العرب ، ولكنهم ساروا فيه على آثار المشروع الفرعوني .

وأيّاً كانت الآراء ، فإن المقطوع به أن الخليفة عمر ، أقرَّ القيام بالمشروع ، وهو مشروع بالغ الضخامة ، إذا ما قيس بإمكانيات العصر الذي تمَّ فيه ، والمدة التي أُنجز فيها، والتي لم تتجاوز العام الواحد .

وكان الخليج يجري مبتدئاً من شمال « بابليون » (باب ليون) متَّجهاً شرقاً إلى « بلبيس » ، فإذا تجاوزها اتجه شرقاً إلى بحيرة التمساح ، ليخرج من جنوب هذه البحيرة ، فيتابع جريانه خلال البحيرات المُرَّة ، فيبلغ البحر الأحمر عند السويس .

احتاج عمر في تنفيذ المشروع إلى دليل من القبط يرشده إليه ،

كافأه عمر على ذلك بأن رفع عنه الجزية .

وتذكر بعض الروايات أيضاً ، أن عمرو بن العاص ، لجأ، في تنفيذ هذا المشروع ، إلى السخرة ، فجنَّد له الألوف من العمال المصريين ، مما عرَّضه للسَّخط والإنتقاد الشديد من قِبَل بعض مؤرخي الفترة من القبط .

ولقد أراد عمرو ـ عقب نجاح الجزء الأول من المشروع ـ أن يعيده في صورته القديمة ، اقتداءً بما فعله « بطليموس الثاني » ، ومن قبله « نخاو » ، بأن يحفر خليجاً بين بحيرة التمساح ، وبحر الروم، يصل مياه البحرين (بحر القلزم وبحر الروم). ولكن الخليفة، وبعد تفكير بعواقب الأمور رفض ذلك ، خوفاً من أساطيل الروم من ناحية ، ولأنه كان يريد ألَّا تفصله عن جنده مياه من ناحية أخرى .

تنظيم القضاء

ارتبط اسم عمر بالقضاء أكثر من ارتباطه بأي وظيفة أخرى ، حتى أصبح اسمه مقروناً بالعدل في كل زمان ومكان .

ولا غرابة في أن يختار عمر لنفسه وظيفة القضاء ، حينما آل الأمر إلى أبي بكر ، وخشي ألا يستطيع القيام وحده بمسؤولية الحكم ، فقال له عمر : « أنا أكفيك القضاء ! » .

والمعروف أنه لم يكن لدى العرب في الجاهلية نظام محكم

للقضاء ، وإن كانوا ، ككل جماعة منظَّمة ، قد سلكوا عـدَّة سبل في حسم المنـازعات التي تثـور فيما بينهم بـطرق سلمية ، وأشهـر هذه السُبُل ، كما ذكر بعض الرواة ، هي :

ـ الحكومة :

فقـد كـان بنـو سعـد أصحـاب الحكـومـة في قـريش ، قبـل الإسلام ، جرياً على عادة العرب في الجاهلية ، من تقسيم الأعمال الإجتماعية الهامة بين الأُسر المرمـوقة . فكـان يحتكم القرشيـون ، وغيرهم ممن يفدون على مكة من العرب ، إلى زعمـاء بني سعد ، فيما يقع بينهم من الخصومات .

ـ الإحتكام :

وهو احتكام العرب إلى الكهَّان[١] ، والعرّافين[٢] .

التعاهد على دفع الظلم :

نشأ هذا النظام قُبيل بَعْث الرسول ﷺ . وكان سببه أن رجـلاً من اليمن قـدم مكة معتمـراً ببضاعـة ، فاشتـراها منـه رجل من بني سهـم ، ثم رفض أن يدفع لـه ثمن بضاعتـه ، أو ردّ قيمتها ، فـأعلن الرجل مظلمته على رجال من قريش حول الكعبة . فـاجتمع زعمـاء

---

(١) الكاهن : من كان العرب يعتقدون أنه على صلة بالجن .

(٢) العراف : هو من يعرف الأمور عن طريق الفراسة والقرائن .

قريش في دار عبد الله بن جدعان ، وتحالفوا على ردّ المظالم بمكة ، وإنصاف كل مظلوم ، وقد أُطلق على هذا الحلف ، الذي حضره الرسول ﷺ قبل البعث ، وهو في سن الخامسة والعشرين، حلف الفضول .

فلما جاء الإسلام كان الجوُّ ممهَّداً لقيام طريقة سلمية لفضّ كافة المنازعات ، وقد تجلَّت رغبة الرسول ﷺ في ذلك صراحة في الحلف الذي عقده بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين ، واليهود ، وغيرهم من المشركين ، حيث يقول : « وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى محمد رسول الله ﷺ » .

وهكذا جمع الرسول ﷺ بين التشريع والتنفيذ والقضاء ، فلم يكن للمسلمين قاضٍ سواه . وإن كان الرسول ﷺ ، بعد أن شمل الإسلام كافة أرجاء الجزيرة ، قد عهد إلى ولاته بالقضاء بين المسلمين ، فكان القضاء من أهم وظائف الوالي .

وكان الرسول ﷺ يقضي بين المسلمين طبقاً لكتاب الله ، وكانت طرق الإثبات عنده البّينة واليمين ، وشهادة الشهود ، والكتابة ، والفراسة ، وغيرها . وكان عليه السلام يقول :

« **البّينة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر** » . ويقول :

« **أُمرت أن أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر** » .

فلما ولي الخلافة أبو بكر ، عهد بالقضاء في المدينة إلى عمر بن الخطاب ، فظلَّ سنتين لا يأتيه متخاصمان ، لما اشتهر عنه من الشدّة والحزم .

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، اضطر الخليفة عمر بن الخطاب ، إلى أن يخصِّص قاضياً لكل إقليم هام[1] . فكان ، بذلك أول من وضع أساس السلطة القضائية المتميّزة . ولم تقتصر إنجازات عمر على تنظيم السلطة القضائية في الإسلام ، بل إنه وضع القواعد الأساسية لسلوك القاضي .

ثم إن عمر بن الخطاب قد استحدث نظام السجون ، لأول مرة في الدولة العربية ، ذلك أن السجن بمعناه الحالي لم يكن معروفاً ، لا في زمن الرسول ، عليه السلام ، ولا في عهد الخليفة أبي بكر ، إذ كان يُكتفى بمنع المتهم من الإختلاط بغيره ، بوضعه في منزل أو مسجد ، على أن يلازمه من يُعيَّن لهذا الغرض . ولعلّ السبب في ذلك أن القرآن الكريم لم يلحظ عقوبة الحبس .

---

(١) ولّى عمر أبا الدرداء لقضاء المدينة ، وشريحاً بن الحارس الكندي لقضاء الكوفة ، وأبا موسى الأشعري لقضاء البصرة ، وعثمان بن قيس بن أبي العاص لقضاء مصر .

على أنه رغم ظهور القضاء المنظَّم في هذا العهد المبكِّر ، فإنه كان يُمارس بطريقة بسيطة ، تعتمد على اجتهاد القاضي ، وفراسته . فكان القاضي يطبِّق القرآن الكريم والسنة والإجتماع ، وهي المصادر الأساسية للتشريع الإسلامي .

ولم يكن يُفرض على المتقاضين أية رسوم . وكان القاضي يجلس للفصل في المنازعات في منزله ، ثم اتخذ المسجد مكاناً لعقد جلسات القضاء .

دستور القضاء كما وضعه عمر :

لم يكتف عمر بأن جعل القضاء وظيفة مستقلة ، وخصَّص لها عاملاً متفرغاً للقيام بها . بل إنه حدَّد لعمَّاله على القضاء أسلوب التقاضي ، وآدابه ، ووسائل الفصل بين المتقاضِيْن، مما يُطْلِقْ عليه الفقهاء « دستور القضاء » .

وأهم وثيقة يشير إليها الفقهاء في هذا الصدد ، هي خطاب أمير المؤمنين عمر ، إلى أبي موسى الأشعري ، وقد جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك . أما بعد :

فإن القضاء فريضة مُحْكَمة وسنَّة متَّبعة ، فافهم إذا أُدلي

إليك ، وانفذ إذا تبيَّن لك ، فإنـه لا ينفع حقٌ لا نفـاذ له ، آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييْأس ضعيف في عدلك .

البيِّنة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحلَّ حراماً ، وحرَّم حلالاً .

ولا يمنعـك قضاء قضيتـه بـالأمس ، فـراجعت فيـه نفسـك ، وهديت به لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإنَّ الحق قديم ، لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل .

الفهم ، الفهم، فيما تلجلج في صدرك ، ممـا ليس في كتاب الله ، ولا في سنَّة ، واعرف الأشياء ، والأمثال ، ثم قِسِ الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبّها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، فاتَّبِعْه، واعمد إليه .

واجعل لمن ادَّعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه أو بيِّنة عادلة ، فإنه أثبت في الحجـة ، وأبلغ في العُـذر ؛ فـإن أحضـر بيِّنـة إلى ذلـك الأجل ، أخذ بحقه ، وإلا وجهت إليه القضاء .

والمسلمـون عـدول في الشهـادة ، بعضهم على بعض ، إلاَّ مجلوداً في حدّ ، أو مجربـاً عليه شـهـادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولَّى منكم السرائر ، ودَرَأ عنكم الشَّبهات .

وإياك والقلق ، والضجر ، والتأذِّي بالناس ، والتنكُّر للخصوم في مواطن الحق ، التي يُوجب الله بها الأجر ، ويُحسن الذخر ، فإنَّه من يخلص نيِّته ، فيما بينه وبين الله ، تبارك وتعالى ، ولو على نفسه ، يكفِّه الله ما بينه وبين الناس .

ومَنْ تزيَّن للناس ، فيما يعلم الله خلافه منه ، شأنه الله ، وهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنّك بثواب عند الله ، عز وجل ، في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته والسلام » .

وإذا كانت الوثيقة الآنفة الذكر قد جمعت أكبر جانب من آداب القضاء ووسائله ، فإن الخليفة عمر قد أضاف إليها ما يُوضح ما جاء فيها أو يفسره ، وذلك في كتبه إلى وُلاته الآخرين ، ومن ذلك ما كتبه إلى أبي عبيدة بن الجرّاح واليه على الشام :

« أما بعد . فإني كتبت إليك في القضاء ، لم آلك ونفسي فيه خيراً ألزم خمس خصال يسلم لك دينك ، وتأخذ بأفضل حظك :

إذا أُحضر الخصمان ، فعليك بالبيِّنات العدول ، والأَيمان القاطعة ، ثم ادنِ الضعيف حتى ينبسط لسانه ، ويجترىء قلبه . وتعاهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه ، ترك حاجته ، وانصرف إلى أهله ، وإنما ضيَّع حقه من لم يرفقْ به . وآسِ بينهم في لحظك وطرفك ، واحرص على الصلح ما لم يتبيَّن لك القضاء ، والسلام ! » .

وكتب إلى معاوية يقول :

« أما بعد . فالزم الحق يبين لك الحق منازل أهل الحق ، ولا تقضِ إلا بالحق والسلام ! » .

وبجوار الوظيفة القضائية ، نشأت وظائف أخرى بحيث يمكن اعتبارها نوعاً من القضاء المتخصِّص بحسب مصطلحات اليوم ، ونعني بها قضاء المظالم والحسبة . وإذا كان هناك اجماع على أن عمر بن الخطاب هو الذي وضع أساس نظام الحسبة ، فإن قضاء المظالم قد اختُلف بشأنه .

نظام الحسبة :

يعرِّف الماوردي وظيفة المحتسب بأنها : « أمر بالمعروف إذا أظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله» .وبذات المعنى يقول ابن خلدون : « إن الحسبة هي وظيفة دينية ، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وأساس هذه الوظيفة قوله تعالى : **﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾** . وبهذا المعنى تُعتبر الحسبة واجباً عاماً على المسلمين .

وكان الخليفة في أول الأمر ، لا سيما عمر بن الخطاب يقوم بالحسبة بنفسه ؛ فكان كثير التَّجْوال بين المسلمين ليلاً ونهاراً ،

يوجههم لالتزام أحكام الدين ومقتضياته في أمورهم المتعلِّقة بالدنيا والدين . ومع تعاظم مهام الدولة وتخصُّص وظائفها ، تميَّزت وظيفة المحتسب ، وعُهِدَ بها غالباً إلى القضاة ، نظراً للصلة الوثيقة بين اختصاصات المحتسب والقاضي .

النظام الإقتصادي

أحدث عمر بن الخطاب نظاماً اقتصادياً يتلاءم ومصلحة الدولة في عهده ؛ فكان يحضُّ على التجارة ، ويوصي القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها ، لأنها ثُلُثُ المُلْك . ولكنه أبقى الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة ، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكلٍ منهم عطاؤه ، من بيت المال ، كعطاء الجند في الجيش القائم . وإذا أسلم أحدُ الذميِّين أُخذت منه أرضه ، ووزِّعت بين أهل بلده ، وفُرض له العطاء. وكان الغرض من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم ، وأن يعتصم الجند الإسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدِعَة[1] والإشتغال بالثراء والحطام .

وأعفى[2] عمر عن كثير من الأمور في سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها ؛ فصفح عن أهل السواد « العراق » ليأمنوا البقاء فيه ،

---

(١) الدعة : الرفاهية .

(٢) أعفى : صفح .

مع أنهم خنثوا بالعهد ، وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال .

ولعل أبرز خطوة اقتصادية خطاها عمر بن الخطاب ، هي ما يعتبره الباحثون أول تأميم في الإسلام ، تناول سواد العراق. فقد طلب الذين اشتركوا في فتح العراق من الخليفة أن يوزِّع عليهم السواد ، وقالوا : « إننا فتحنا البلاد وصار السواد غنيمة ! » .

فأبى عمر هذا الطلب ، معلناً أنه فيء لجميع المحتاجين من المسلمين ، وبيت المال في كل جيل ، وأضاف قائلاً لسائليه :

« وماذا أترك لمن بعدكم إذا ؟ » .

هذا الإجراء الذي اعتُبر تأميماً كان الهدف منه أن يكون الفَيءُ عاماً للطبقات المعوزة ولمصلحة المسلمين على مدى الأجيال، لا مجال فيه لملكيات كبيرة ، أو استغلال واحتكار فرديَّيْن .

وتنفيذاً لرغبة عمر ومخططه الإقتصادي ، بُعِث عثمان بن حنيف لمسح السواد الذي بلغ ستة وثلاثين ألف ألف جُريب[1] ، ووضع على كل جريب ، مما يناله الماء ، قفيزاً ودرهماً ، إذا زُرع قمحاً وشعيراً ، وعلى جريب الكرمة عشرة دراهم ، وجُريب الرطاب

---

(١) جريب : من مقاييس مساحة الأرض .

خمسة دراهم ، لتُجْبى باسم بيت المال ، وتوزَّع بأمر الخليفة على المعوزين والمصلحة العامة .

وكانت منطقة السواد التي مسحت تمتد من تخوم الموصل إلى ساحل البحر ، ببلاد عبادان ، من شرق دجلة طولاً ، ومن منقطع الجبل في أرض حلوان ، أقصى العراق العجمي ، إلى منتهى أطراف القادسية المتَّصلة بالعذيب من أرض العرب عرضاً .

ومما رُوي أن عمر كانت لديه النية ، كما فُهم من كلامه في آخر أيامه ،على تصحيح النظام الإقتصادي ، وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذي وجدها عليه وقد نسب إليه أنه قال :

« لو استقبلت من أمري ما استدْبَرت[١] لأخذت فضول[٢] أموال الأغنياء ، فقسَّمتها على الفقراء ! » .

كما أُثر عن عمر قوله : « والله ، ما أحد إلَّا وله حق في هذا المال ، ولئن بقيتُ ليأتينَّ الرَّعي بجبل صفاء حظه منه ، وهو في مكانه ! » .

وكذلك قوله : « ولئن كَثُر المال لأفرضنَّ لكل رجلٍ ٤٠٠٠

(١) يعني : لو رجع من عمري ما فات .

(٢) فضول : ما زاد عن الحاجة .

درهم له ، و ١٠٠٠ لمن يخلفه من أهله ، و ١٠٠٠ لفرسه ونعله ، و ١٠٠٠ لسلاحه » .

وأخيراً قَسَمَه : « أما والله ، لئن بقيتُ لأدعنَّ الأرامل لا يفتقرن لأمر بعدي ! » .

إلَّا أن مقتل الخليفة عمر ، بعد فترة وجيزة ، حال دون تنفيذ هذه العزيمة الواعدة .

الفصل السادس

عدالة عمر

مقوِّمات العدالة عند عمر

كان عمر بن الخطاب عادلاً ، وورث القضاء من قبيلته وآبائه ؛ فهو من أنبه بيوت بني عدي الذين تولَّوا السِّفارة والتحكيم في الجاهلية، وراضوا أنفسهم، من أجل ذلك، جيلاً بعد جيل على الإنصاف. وجدّه نفيل بن عبد العزى هو الذي قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية ، حين تنافرا إليه ، وتنافسا على الزعامة . فهو عادل من عادلين ، وناشىء في عهد الحكم والموازنة بين الأقوياء .

وكان عادلاً لأنه قوي مستقيم بتكوين طبعه ، وهو عادل لأن آله من بني عدي ذاقوا طعم الظُّلم من أقربائهم بني عبد شمس ، وكانوا أشدَّاء في الحرب، يسمونهم « لعقة الدم »[1] . ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلَّة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم بغض

(١) سموا كذلك لأنهم تحالفوا مع غيرهم ، فنحروا جزوراً ، فلعقوا دمها ، أو غمسوا أيديهم فيه .

القوي المظلوم للظلم ، وحبه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه .

ولعلّ العدالة في حياة عمر تكتسب أهميتها من كونها لم تقتصر على نمطٍ معيَّن من التصرف ، أو موقف مميَّز عابرٍ اتخذه في قضية من القضايا ، وإنَّما كان لها سمة عامة ، طبعت كلّ تصرفاته ومواقفه وأعماله .

أشكال العدالة عند عمر

لعلّ أهم وأجمل صور وأشكال العدالة عند عمر هو ما يمكن أن تختصره العناوين التالية :

أ ـ اهتمامه بشؤون الناس وشجونهم ، وخاصة الفقراء منهم . وفي هذا السياق :

خرج عمر يوماً إلى السوق ، فلحقته شابَّة ، وقالت له : « يا أمير المؤمنين ، هلك زوجي ، وترك صِبْيَة صغاراً . والله ، ما ينضجون كراعاً ، ولا لهم زرع ، ولا ضرع ، وخشيت عليهم الضباع ، وأنا ابنة خفاف الغفاري ، وقد شهد أبي الحديبية » .

فوقف معها ، وقال : « مرحباً ، مرحباً ، بنسبٍ قريب ! » .

ثم انصرف إلى بعير ظهير ، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً ، وجعل بينهما نفقةً وثياباً ، ثم ناولها حطامه ، وقال لها : « اقتاديه ، فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الخير ! » .

فقال رجل : « يا أمير المؤمنين أكثرت لها ! » .

فقال له : « ثكلتك أُمُك ، والله ، إني لأرى أب هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً فافتتحاه ، ثم أصبحنا نستفيء سهامها فيه ! » .

ثم إن عمر ، مرَّ برحبة من رحاب المدينة في أثناء عَسَسِهِ[1] في الليل ، فسمع أنين امرأة ورجلاً قاعداً ، فسلَّم عليه وسأله ، فقال له : « امرأة تمخض »[2] .

فسأله : « هل عندها أحد ؟ » .

قال : « لا ! » .

فذهب إلى زوجته أم كلثوم ، وقال لها : « أجرٌ ساقه الله إليك . خُذي ما يصلح المرأة لولادتها ، وجيئيني ببُرمة[3] وشحم وحبوب ! » .

ثم انطلق مع زوجته ، وهو يحمل البرمة إلى أن أتى المكان ، فأمر الرجل أن يُوقد تحت البرمة حتى أنضجها ، وولدت المرأة ، فهتفتْ أم كلثوم : « بَشِّرْ صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام ! » .

---

(١) العسس : التفتيش في الليل أو الحراسة .

(٢) تمخض : تتهيأ للولادة .

(٣) البرمة : قدر من حجارة .

فذهل الرجل ، وقال له : « مكانك ! » .

ثم حمل البرمة ، ووضعها على الباب . وقال : « اشبعيها ! » .

فلمَّا شبعت ، وضع البرمة أمام الرجل ، وقال له : « كلْ ، فإنك سهرت الليل ! » . ثم قال له :

« إذا كان غداً ، فَأْتنا نأمر لك بما يصلحك! » . ففعل ، فأجازه وأعطاه .

ومن هذا الباب أيضاً ، ما رُوي عنه أنه خرج مع رفيق له في الليل حتى اقتربا من رَكْبٍ في ضاحية المدينة ، فإذا امرأة معها صبيان صغار ، وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون ، فسألها عمر : « ما بالكم ؟ » .

قالت : « قد ضرَّ بنا البرد والليل ! » .

قال : « وما بال الصِبْية يتضاغون ؟ » .

قالت : « الجوع ! » .

قال : « فأيّ شيء في القدر ؟ » .

قالت : « ما أُسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر ! » .

قال : « أي رحمك الله ، وما يدري عمر بكم ؟ » .

قالت : « يتولى أمرنا ثم يغفلْ عنا ! » .

فخرج مهرولاً إلى بيت الدقيق ، فأخرج عِدْلاً من دقيق ، وكبةً من شحم ، وقال لرفيقه : « احمله عليَّ ! » .

فقال له : « أنا أحمله عنك » .

فقال : أنت تحمل وِزْرِي يوم القيامة ؟ لا أمَّ لك ! » .

فحملها عمر، وانطلق إلى المرأة وأولادها. ثم جعل ينفخ النار تحت القدر حتى نضج الطعام ، وأكل الصِبْيَة وشبعوا ، فجعلت تقول : « جزاك الله خيراً . كنت أولى بهذا الأمر من عمر ! » .

فأجابها عمر : « قولي خيراً ، إذا جِئْتِ أمير المؤمنين وجدتني هناك ، إن شاء الله ! » .

المصلحة العامة فوق كل اعتبار

كان عمر في عدله لا يفرِّق بين قريب وبعيد ؛ فالمؤمنون عنده جميعاً سواء ، ومن دخل في ذمَّة المسلمين أصبح له من الحق في عدل أمير المؤمنين ما للمسلمين أنفسهم . إن حب عمر للعدل جعله يطلب إلى عمَّاله أن يكونوا مثله ، عدلاً وإنصافاً . كما طلب إلى الناس ، في شتى أرجاء دولته المترامية الأطراف ، أن يرفعوا إليه ما قد ينزل بهم على يد عمَّاله من حيف حتى ينصفهم ، إذا رأى إنصافهم حقاً ؛ فإن شكوا إليه عاملاً كيداً بغير حقٍ أنصفَ هذا العامل

منهم لتبقى للحكم هيبته ، ويبقى للعامل العادل مكانه وسلطانه .

وضمن هـذه المفاهيم ، جـاءه رجل من أهـل مصـر ، وقـال له : « يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ منك ؟ » .

قال : « وما لك ؟ » .

قال : « أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلتْ فرس لي ، فلمَّا تراءاها الناس قام محمد بن عمرو ، فقال : فـرسي وربِّ الكعبة ! » .

فلمَّا دنا مني عرفته ، فقلت : « فـرسي وربِّ الكعبة ! » فقـام يضـربني بـالسـوط ، ويقـول : « خـذهـا ، خـذهـا ، وأنـا ابن الأكرمين ! » .

فكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص يستدعيـه مع ابنـه فقدِمـا عليه . ثم استدعى المصري ، وقال له : « دونك الدرَّة ، اضرب ابن الأكرمين ! » .

فضربه حتى أثخنه .

ثم قال له : « اجْـلِها على صـلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلاَّ بفضل سلطانه ! » .

فقـال الـرجـل : « يـا أميـر المؤمنين ، لقـد ضـربني من ضربني ! » .

فقال : « أما والله ، لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه ! » .

ثم هتف بعمرو قائلاً : « متى استعبدْتُم الناس ، وقد ولَدتهم أمهاتهم أحراراً ؟! » .

وجيء إلى عمر بمالٍ ، فبلغ ذلك حفصة أم المؤمنين ، ابنته ، فجاءت إليه ، وقالت : « يا أمير المؤمنين ، حقٌّ أقربائك من هذا المال ، وقد أوصى الله بالأقربين ! » .

قال : يا بُنَيَّة ، حقٌّ أقربائي في مالي . وأما هذا ففيء المسلمين . غششت أباك ، ونصحت أقرباءك . قومي عني ! » .

فقامت تجر ذيلها .

ورُوي عن عمرو بن العاص أنه قال :

ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر أخوف لله من عمر . لا يبالي على من وقع الحق على ولد أو والد . ولقد كنت في مصر ، فاستأذن عليَّ عبد الرحمن ابنه (ابن عمر بن الخطاب) مع رفيق له اسمه أبو سروعة ، فأذن لهما فدخلا متنكرين ، فقالا : أقم علينا حدَّ الله ، فإنَّا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا . فذبرتهما وطردتهما . فقال عبد الرحمن : إنْ لم تفعلْ أخبرتُ أبي (عمر) إذا أقدمت عليه . فخفتُ من عمر ، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحدّ ،

وأخذ عبد الله بن عمر أخاه وأبا سروعة إلى بيت من الدار ، فحلق رأسيهما ، حيث يُحلق رؤوس الذين يحدّون من السكر زيادة في التعزير . ولم أكتب إلى عمر بالحادث . ولم يمضِ طويل وقت حتى جاءني منه كتاببقول فيه :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى العاصي بن العاص .

عجبت لك لجرأتك عليَّ وخلافك لعهدي . ولقد خالفت فيك أصحاب بدر ممن هم خير منك ، واخترتك لجذلك عني ، وإنفاذ عهدي ، فأراك قد تلوَّثت بما قد تلوَّثت ، فما أراني إلاَّ عازلك فمسيء عزلك !

تضرب عبد الرحمن في بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفني . إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين . ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت أن لا هوادة لأحدٍ من الناس عندي في حق يجب لله ، فإذا جاءك كتابي هذا فابْعَثْ به في عباءة على قُتْب حتى يعرف سوء ما صنع ! » .

فبعثت به كما أمرني وكتبت له مُقْسِماً أني أُقيم الحدود في صحن داري على الذمِّي والمسلم . ولما وصلَ عبد الرحمن طلب السياط ليجلده . فكلَّمه عبد الرحمن بن عوف قائلاً : يا أمير المؤمنين ، قد أُقيم عليه الحدّ مرة ، فلم يلتفت إليه فضربه وحبسه ، وكان يصيح أنا مريض ، فلم يعبأ بصياحه .

وذُكر أن عبد الرحمن مات بعد شهر ، فحسب بعض الناس أنه مات من الجلد .

وخطب عمر مرة في الناس ، فقال : « أيها النـاس ، من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقوِّمه ! » .

فقام رجل ، وقال : « والله ، لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقـوَّمناه بسيوفنا ! » .

فقال عمر : « الحمـد لله الذي أوجـد في المسلمين من يقوِّم اعوجاج عمر بنفسه ! » .

وسأل عمر مرة المهاجرين والأنصار : « أرأيتم لو ترخَّصتُ في بعض الأمور ، ما كنتم فاعلين ؟ » .

فسكتوا ، فأعاد السؤال مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال بشير بن سعد :

« لو فعلتَ قوَّمناك تقويم القدح ! » .

فقال عمر : أنتم إذن ، أنتم إذن ! » استحساناً لقوله .

ولعلّ من أهم ما ذُكر من أقوالـه ، التي تدل على شـدَّة وَرَعِه وإيمانه وحرصه على المسلمين ، ما يلي :

« أربع من الإسلام لست مضيِّعهنَّ ، ولا تاركهنَّ لشيءٍ أبداً :

القوة في مال الله ، وجمعه إذا جمعناه وضعناه حيث أمر الله ،

وقصدنا آل عمر ليس في أيدينا ، ولا عندنا منه شيء .

والمهاجرون الذين تحت ظلال السيوف ألاَّ يُحبسوا ، ولا يُحجروا ، وأن يوفَّر فيء الله عليهم وعلى عيالاتهم . وأكون أنا للعيال حتى يقدموا .

والأنصار الذين أعطوا الله ، عزَّ وجلّ ، نصيباً ، وقاتلوا الناس كافة ، أن يُقبل من مُحسنهم ، ويُتجاوز عن مسيئهم . وأن يُشاوَروا في الأمر .

والأعراب الذين هم أصل العرب ومادَّة الإسلام ، أن يُؤخذ منهم صدقتهم على وجهها ، ولا يُؤخذ منهم دينار ولا درهم ، وأن يردّ على فقرائهم ومساكينهم » .

ومن مأثور حِكَمِهِ :

« الرعية مُؤدِّيه إلى الإمام ما أدَّى إلى الله ؛ فإذا رفع الإمام فارفعوا » .

« لا ينبغي أن يلبي هذا الأمر إلاَّ رجلٌ فيه أربع خلال : اللِّين في غير ضعف ، والشدَّة في غير عنف ، والإمساك في غير نحل ، والسماحة في غير سرف » .

ومن ذلك أيضاً : « يَهدم الإسلام ثلاث : زَلَّة عالم ، وجِدال منافق بالقرآن ، وأئمة مضلون » .

« يَهدم الإسلام ثلاث : زَلَّة عالم ، وجِدال منافق بالقرآن ، وأئمة مضلون » .

زهده وتواضعه

إن زهد عمر في أنعم الحياة هو الذي طوَّع له أن يكون مَضْرِب المثل في العدل ؛ فقد كان ، بهذا الزهد ، لا يخشى إلَّا الله ، ولا يرجو أحد غيره .

وكان يعلم أن الله محاسبه عما وَلِيَ من أمر المسلمين ، فيزداد خشية ، وتزيده الخشية حرصاً على تحرِّي العدل إرضاءً لله جلَّ شأنه .

وزهد عمر في أنعم الحياة هو الذي دفع إلى قلبه من الرفق بالفقراء ، والعطف عليهم ، ما خشي الناس يوم استخلف ألَّا يكون له منه نصيب ؛ فقد رأوه في عهد الرسول ﷺ عادلاً صارم العدل ، ورأوه في عهد أبي بكر شديد البطش بالظالمين ، فلم يَدْرُ بخلدهم أنه سيعرف الرحمة في حياته . لهذا لم يلبث حين آل الأمر إليه أن احتفظ بكل شدَّته على الظالمين ، ثم كان بالضعفاء والفقراء برًّا ، رحيماً ، يكَفْكِفُ دموعهم ، ويحمل إليهم ، بنفسه ، ما لهم من حقوق ، ويرعاهم صغاراً وكباراً ، لذلك وجد هؤلاء في عمر ملجأهم وملاذهم .

ومما رُوي عن زهده في زينة الحياة الدنيا ، وطيِّبات العيش ، أن أبا عثمان الفهري ، قال : « رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، إحداهن بأديم أحمر ، وأنه أبطأ مرة عن صلاة الجمعة . فلمَّا جاء ، وصعد المنبر ، اعتذر للناس فقال : إنما حبسني ثوبي هذا ! كان يُغْسل ، فلم يكن لي ثوب غيره . وأن ابن عمر قال : والله ، لقد رأيت النبي ﷺ يرقع ثوبه ، ورأيت أبا بكر تخلَّل بالعباءة ، ورأيت عمر يرقّع جبَّته » .

وحدث في سنة من السنين أن أصاب الحجاز جدب شديد ، وعرفت هذه السنة بـ « عام الرمادة » لأن الأرض صارت بلون الرماد ، فحرم عمر نفسه من أي طعام طيِّب ؛ من لحم ، وسمن ، واكتفى بالزيت والخبز .

وقد أثر عنه قوله : « والله ، ما يمنعنا أن نأمر بصغار المعزى ، فتُسمط لنا ، وبلباب البر ، فيُخبز لنا ، وبالزبيب ، فيُنبذ لنا ، فنأكل ذاك ، ونشرب هذا . ولكنَّا نريد أن نستبقي طيباتنا ، لأن الله يقول : ﴿ أذهبتم طيِّباتكم في الحياة الدنيا ﴾ .

رعايته لأهل الذِّمة

إن عدالة عمر الإجتماعية والإقتصادية والسياسية لم تكن لتنتهي عند المسلمين فقط ، بل امتدَّ أثرها وجعلها إلى أهل الذمة أيضاً .

فلو كان الإسلام ظالماً بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه ، لكان عمر أشد المسلمين ظلماً لهم وقسوةً عليهم ، لكنه (أيْ عمر) كان في الواقع من أشد المسلمين رعاية لعهد أهل الكتاب ، مُذْ كان من أشد المسلمين غِيْرة على دينه ، وعملاً بآدابه .

وكان شأنه مع من صالحوه ، وعاهدوه ، أن يفي بعهدهم ويخلص في الوفاء به إخلاص مَنْ يطالب نفسه به قبل أن يطالبه الآخرون .

كتب عمر للنصارى في بيت المقدس أماناً على أنفسهم ، وأولادهم ، ونسائهم ، وأموالهم ، وجميع كنائسهم لا تُهدم ، ولا تُسكن .

وعندما حان وقت الصلاة ، وهو جالس في صحن كنيسة القيامة ، خرج ، وصلَّى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها بمفرده ، وقال للبطرك : « لو صلَّيت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي ، وقالوا : هنا صلَّى عمر ! » .

ثم كتب كتاباً يوصي به المسلمين ألَّا يُصلِّي أحد منهم على الدرجة ، إلَّا واحداً واحداً ، غير مجتمعين للصلاة فيها ، ولا مؤذِّنين عليها .

لقد كان عهده لنصارى بيت المقدس مثالاً للتسامح ،

والمروءة ، والعدالة السياسية . قال لهم فيه :

« . . . هذا ما أعطى عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبانهم ، وسقيمها ، وبريئها ، وسائر ملَّتها : انه لا تُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولا يُنتقض منها ، ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم .

لا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يَسْكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن ، وأن يُخرجوا منها الروم واللصوت[1] ؛ فمن خرج منهم ، فهو آمن على نفسه وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم ، فهو آمن ، وعليه مِثْل ما على أهل إيلياء من الجزية . . .

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلي ببيعهم وصُلبهم[2] ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيعهم ، وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . . . » .

أما إخراج بعض الذمِّيين من الجزيرة العربية ، فقد اعتبره

(١) اللصوت : اللصوص ، مفردها : لصت .
(٢) البيع : جمع بيعة ، وهي معبد النصارى . والصلب : جمع صليب .

بعض الباحثين من المآخذ على سياسة عمر . والراجح أن الإجراءات التي اتخذها الخليفة بحق بعض الذميين من سكان الجزيرة ، إنما اقتضته سياسة الدولة عامة ، ومصلحة المسلمين خاصة . فما خرج من الذميين أحد إلاّ وقد غدر بعهده ، وكرَّر ذلك مرة بعد مرة ، كما صنع أهل خيبر .

فقد صالح النبي ﷺ يهود خيبر على أن يبقوا في مساكنهم ، ولا يأكلوا الربا ، ولا يتعاملوا به . وجاء أبو بكر فجدَّد الصلح على ذلك . ثم استخلف عمر ، فرجعوا إلى الربا ، وأفرطوا فيه ، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا فيما بينهم ، وأتوا عمر يسألونه إجلاءهم ، فاستحبَّ هذا الجلاء .

على أنه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة العربية ، ويؤدّوا العشور . فلمّا كتبَ إليه المشركون من أهل منبج . أن : « دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا »[1] ، شاور أصحاب الرسول ﷺ ، فأشاروا عليه بقبولهم ، فدعاهم إليه .

على أن خطة الإجلاء ، التي لجأ إليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها ، كانت مقترنة بأمرين أساسيين :

الأول : أن الجزيرة حرمُ الإسلام الذي كان يحيط به أعداؤه

(١) أي تدعنا ندفع العشور .

ويتربَّصون به الدوائر ، ويثيرون الفتنة على أطرافه ، كما صنع الفرس بالعراق ، والروم بالشام . ولا أمانَ على حرم يسكنه أناس فيهم من يغدر بأهله ، بل فيهم من هؤلاء كثيرون .

الثاني : أن عمر قد سوَّى بين الإسلام والنصرانية في هذه الخطة ؛ فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين ، لا يسكنه معهم مَنْ لا يقبلونه ، كما حفظ حرم الإسلام بالجزيرة العربية للمسلمين ، لا يسكنه معهم من يحذرون غدره .

الفصـــل السابـع

مقتل عمر بن الخطاب

حـــادثـة الإغتيـــال

اغتيل عمر بن الخطاب ، في السادس والعشرين من شهر ذي الحجـة ، من السنة الـرابعة والعشـرين للهجرة ، بحـربة طعنـه بهـا فارسي اسمه أبو لـؤلـؤة ، وهو يصلِّي بالناس صلاة الصبح . وبذلك تكون مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر تقريباً .

وأبو لؤلؤة مملوك للمغيرة بن شعبة ، وقد ذُكر أن المغيرة فرض على مملوكه مئة درهم في الشهر ، فاستكثرهـا ، وجاء إلى الخليفـة شاكياً ، فسأله عن صنعته ، فقال : إنه نجار ، وحدَّاد، ونقَّاش. فقال له عمر : « لا أرى خراجك كثيراً ! » .

ثم قال : « بلغني عنك أنـك تستطيـع أن تعملَ رُحى تـطحن بالريح ، فاعْمل لي رحى ! » .

فأجابه أبو لؤلؤة : « لئن سَلِمْتَ لأعملنَّ لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ! » ثم انصرف عنه ساخطاً .

فقال عمر لمن حوله : « لقد توعَّدني العبد آنفاً ! » .

قال عمرو بن ميمون واصفاً حادثة الإغتيال :

إني لقائم ما بيني وبين عمر إلَّا ابن عباس غداة أصيب ، وكان إذا مرَّ بين الصفوف قال : استووا حتى إذا لم يَـرَ فيهم خللاً ، تقدَّم فكبَّر . فربما قرأ بسـورة يوسف أو النحـل ، ونحو ذلـك في الركعـة الأولى حتى يجتمع الناس . فما هو إلَّا أن كبَّر حتى سمعته يقـول : قتلني الكلب !! حين طعنه ، وجاءه في كتفه وفي خاصـرته ، وقيـل ضربه ست ضربات ، وقيل : ثلاثة ضربات .

فطار العلج بسكين ذات طرفين ، لا يمـرّ على أحد يمينـاً ولا شمالاً إلَّا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ؛ مات منهم تسعة وقيل سبعـة . فلمَّـا رأى ذلك رجـل من المسلمين (هو عبـد الرحمن بن عوف ، طرح عليه برنساً له ليأخذه ، فلمَّا ظنَّ العلج أنه مأخوذ نحر نفسه .

وتناول عمر بيد عبد الرحمن بن عوف ، فقدمه . فأما من يلي عمر ، فقد رأى الذي رأيت . وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون ما الأمـر إلَّا أنهم فقدوا صـوت عمر ، جعلوا يقـولون : سبحـان الله ! فصلَّى بهم عبـد الرحمن صـلاة خفيفـة . ورُوي أن عمـر لمـا طُعن انصرف إلى منزله ، وماج الناس حتى كادت تطلع الشمس ، فنادى عبد الرحمن : « يـا أيها النـاس ، الصلاة ، الصـلاة ! » . ثم تقدَّم

فصلّى بأقصر سورتين في القرآن .

قال ابن عباس : « لم أزل عند عمر ، ولم يزل في غشية واحدة ، حتى أسفر فقيل : إنكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة ، إن كانت به حياة ، فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين ، الصلاة ! فانتبه ، وقال : الصلاة ، والله ، إذن ولا حق ونظر في وجوهنا . ثم قال : أَصلّى الناس ؟

قال ابن عباس : قلت نعم ! قال : لا إسلام لمن ترك الصلاة. ثم دعا بوضوء فتوضأ، ثم صلّى وإن جرحه يتصبب دماً. ثم قال: يا ابن عباس ، اخرج فَسَلْ من قَتَلني! فخرجت من باب الدار، فإذا الناس مجتمعون ، جاهلون بأمر عمر ، فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ قالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة بن شعبة ، ثم طعن معه رهطاً ثم قتل نفسه .

فرجعت ، فإذا عمر يمدّني النظر ، يستأني خبر ما بعثني إليه . فقلت : « غلام المغيرة بن شعبة » . قال : « الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدة سجدها له قط ! ما كانت العرب لتقتلني ! » .

ولما احتمل ، ودخل الناس عليه ، قال : يا ابن عباس ، اخرج ، فنادِ في الناس : « أَعَنْ ملأٍ منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني ؟ » .

فقالوا : « معاذ الله ، والله ما علمنا ولا اطَّلعناه ! » .

وقال البدريون المهاجرون والأنصار حين سألهم : « لا والله ، لوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا ! » .

قال ابن عمر : فسمعت عمر يقول : « أرسلوا إليَّ طبيب ينظر إلى جرحي هذا ! فأرسلوا إلى طبيب من العرب ، فسقى عمر نبيذاً ، فشبه النبيذ بالدم حين خرج من الطعنة . فدعوتُ طبيباً من الأنصار ، من بني معاوية ، فسقاه لبناً فخرج اللبن من الطعنة بصديد أبيض . فقال له الطبيب : يا أمير المؤمنين اعْهَدْ[1] . قال عمر : صدقني أخو بني معاوية ، ولو قلت غير ذلك لكذَّبتك ! ثم إن عمر بدأ يألم ، فقال له ابن عباس ، وكأنه يجزعه (أي يزيل جزعه) : يا أمير المؤمنين ؛ ولئن كان ذاك ، لقد صحبت رسول الله ﷺ ، فأحسنت صحبته ، ثم فارقته ، وهو عنك راضٍ ، ثم صحبت أبا بكر ، فأحسنت صحبته ، ثم فارقته ، وهو عنك راضٍ . ثم صحبت صحبتهم ، ولئن فارقتهم ، وهم عنك راضون » .

ثم إن عمر قال لابنه عبد الله : « يا عبد الله بن عمر ، انظر ما عليَّ من الدَّيْن ؟ » .

فحسبوه ، فوجدوه نحو ست وثمانين ألف درهم ، قال عمر :

---

(١) يقصد أنه ميت لا محالة .

« إن وفى به مال عمر فأَدِّه من أموالهم ، وإلاَّ فاسأل فيه بني عديٍّ ، فإن لم تفِ أموالهم فاسْأَل فيه قريشاً ، ولا تَعْدُهم إلى غيرهم » .

قال عبد الرحمن بن عوف : « ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤدِّيها ؟ » .

قال عمر : « معاذ الله ، أن تقول أنت وأصحابك بعدي : أمَّا نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر ، فتَعِزُّوني بذلك ، فتتبعني تَبِعَته ، وأقع في أمر لا ينجني إلَّا المخرج منه ! » .

وحينما شعر بدنو أجله أرسل يستأذن أم المؤمنين عائشة بأن يُدفن في بيتها إلى جانب صاحبيه ، فأذنتْ له ، فدفن بعد موته إلى جانب النبي ﷺ وأبي بكر .

شورى الستة في الخلافة بعد عمر

بعد أن طعن عمر ، وقبل ساعاتٍ من وفاته ، قال له أصحابه :

« أوصي يا أمير المؤمنين واستخلف ! » .

فقال : « إن أستخلف فقد استخلف مَنْ هو خير مني ، يعني أبا بكر ، وإن أترك ، فقد ترك مَنْ هو خير مني ، يعني النبي ﷺ . ولكنِّي أخاف الفتنة ، ولستُ أرى أحداً أحقّ بهذا الأمر من النفر الذين توفي رسول الله ﷺ ، وهو عنهم راضٍ ، وهم ستة : عليّ ،

وعثمان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف » .

ثم دعا عمر هؤلاء الستة، وقال لهم : « اختاروا واحداً منكم ، واحسنوا مؤازرته ، وأعينوه ، واحضِروا مجلس مشورتكم عبد الله بن عمر ، دون أن يكون له من هذا الأمر شيء » .

ثم قال للمقداد بن الأسود : « إذا وضعتموني في حفرتي ، فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم ، وقم على رأسهم ، فإن اجتمع خمسةورضوا بواحدٍ ، وأبى السادس فاشرخ رأسه بالسيف ، وإن اجتمع أربعة ، وأبى الخامس والسادس فاشرخ رأسيهما بالسيف ، وإن اجتمع ثلاثة وخالف ثلاثة ، فحكّموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بحكمه ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف » .

ثم قال لأبي طلحة الأنصاري : « اختر خمسين رجلاً من الأنصار ، فاستحثّ هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم » .

ثم قال لصُهَيْب : « صلِّ بالناس ، وليخلُ هؤلاء القوم في بيت ، فإذا اجتمعوا على رجل ، فمن خالف فاضربوا رقبته ! » .

ومما رُوي أن عمر استدعى علياً ، وقال له : « أُنشدك الله إن

وُلِّيت من أمــر النـاس شيئـاً أن لا تحمـل بني هــاشم على رقـاب الناس ! » .

واستدعى عثمان ثم سعـداً بن أبي وقاص ، فنـاشدهمـا بمثل ذلك أيضاً .

ثم إن الستـة المجتمعين جعلوا أمـرهم إلى عبـد الـرحمن بن عـوف يختـار لهم ، فـاستـدعى عبـد الـرحمن بن عـوف إليـه عليـاً وعثمان ، وقال لهما :

« إني قد سألت الناس فلم أجدهم يعدلون بكما أحداً » .

ثم أخذ العهد على كل منهما ، لئن ولاّه ليعـدلنّ ، ولئن وَلّى عليه ليسمعنَّ وليطيعنَّ . وخرج بهما إلى المسجد في الصبح ، بعد أن نُودي في الناس : أن الصلاة جامعة .

وغصّ المسجد بالنـاس ، فصعد عبـد الرحمن المنبـر ، ودعا دعاءً طويلًا ، ثم قال :

« أيهـا الناس ، إن النـاس قد أحبـوا أن يلحق أهـل الأمصـار بأمصارهم ، وقد علموا مَنْ أميرهم » .

فقال سعيد بن زيد : « إنما نراكَ لها أهلًا ! » .

قـال عبد الـرحمن : « أشيـروا عليَّ بغيـر هـذا ! » . فـأشـار عمَّار بن ياسـر ، والمقداد بن عمـرو بعليٍّ ، وأشار عبـد الله بن أبي

سرح ، وعبد الله بن أبي ربيعة بعثمان .

أدّى اختلاف الفريقين إلى تشاتم بين عمار وابن أبي سرح ، فصاح سعد بن أبي وقاص : « يا عبد الرحمن ! افرغ قبل أن يَفْتَتِنَ الناس ! » .

قال عبد الرحمن : « إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلنَّ ، أيها الرهط ، على أنفسكم سبيلاً ! » .

ثم إنه دعا علياً فأخذ بيده ، وقال : « هل أنت مبايعي لتعملنَّ بكتاب الله وسنَّة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ » .

قال علي : « أرجو أن أفعل ، وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ! » . وأرسل يده .

ودعا عثمان ، وأخذ بيده . وقال له نفس العبارة .

قال عثمان : « نعم ! » .

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان ، وقال ثلاثاً : « اللهم ، اسمع ، واشهد ! » . ثم قال : « اللهم ، إنيّ قد خلعت ما في رقبتي من ذلك ، وجعلته في رقبة عثمان » ، وبايعه . فازدحم من بالمسجد يبايعون عثمان .

خاتمة

وبعد .

ذلك هو عمر بن الخطاب .

شخصية فذَّة، دفعها الإسلام إلى القمة ، فلعبت دوراً خطيراً في تثبيت الأسس الإدارية للدولة العربية الإسلامية الجديدة .

شخصية نَدَرَ أن ينساها من عرفها ، رغم صعوبة تحليلها ، وسَبْرِ أغوارها .

شخصية رجلٍ تولّى إمرة المؤمنين ، فكان لها تاجاً ، ولهم أباً ، وأخاً ، وراعياً ، وحامياً ، وحالماً .

عمر بن الخطاب : الذي إذا ذُكر العدل اقترن باسمه ، وإذا ذُكرت الرَّحمة اتجه الفكر إليه ، وإذا ذُكر البائس كان الغاية فيه .

ويكفي هذا الرجل المسلم ما قاله ﷺ فيه : « مَثَلك يا عمر مَثَل نوح ، قال : ربِ لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً . ومَثَلك مَثَل موسى ، قال :ربَّنا اطمس على أموالهم ، واشْدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

المحتويات

تطمح سلسلة « مشاهير وأحداث إسلامية » إلى أن تضع بين يدي القارىء الكريم زاداً ميسَّراً من سير أبرز أعلام المسلمين الذين كانوا عنواناً للحدث ، مراعية في اختيارها لهم الفرّادة في الحضور التاريخي والتأثير في مجرى الأحداث .

- الرسول ﷺ
- أبو بكر الصِّدِّيق
- عمر بن الخطّاب
- عثمان بن عفان
- علي بن أبي طالب
- خالد بن الوليد
- عمرو بن العاص
- أبو عبيدة بن الجرّاح
- معاوية بن أبي سفيان
- زياد بن أبيه
- عبد الملك بن مروان
- عمر بن عبد العزيز
- الحجاج بن يوسف الثقفي
- المغيرة بن شعبة الثقفي
- موسى بن نصير
- طارق بن زياد
- عبد الرحمن الداخل
- هارون الرشيد
- المأمون
- سيف الدولة الحمداني
- نور الدين زنكي
- صلاح الدين الأيوبي
- الظاهر بيبرس البندقداري
- الناصر محمد بن قلاون
- عبد العزيز آل سعود
- فيصل بن عبد العزيز
- جمال عبد الناصر

دار الفكر اللبناني